حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به ـ العدد الثالث ـ شهر رمضان ـ ١٤٣٤هـ / تموز ـ ٢٠١٣م

٣

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

مسجد الكوفة المعظم سنة ١٩٣٥م يظهر فيها محراب أمير المؤمنين وبقية المحاريب المقدسة للأنبياء والصالحين

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة

في القرن الأوّل الهجري

(القسم الثاني والأخير)

الدّكتور محمّد حسين الزّبيدي

كلية الآداب - جامعة بغداد

الباب الثالث

الحالة الاقتصادية

تمهيد:

لقد تركت الحياة الاقتصادية أثراً واضحاً في حياة المسلمين وتاريخهم، ولا يخفى ما للظّروف الاقتصادية من أثر عظيم في تطور الحياة الاجتماعية حيث أن الوجود الاقتصادي هو الذّي يحدد التّفكير الاجتماعي أو بعبارة أخرى أن أسلوب النّاس في المعيشة هو الذّي يحدد طريقتهم في التّفكير، وعلى هذا فقد تطورت الحياة الفكرية بصورة عامة في الكوفة وصارت مصدراً لكثير من التّيارات التّي لونت حياة النّاس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية بألوان شتى، فحياة المجون واللهو والشّعر الخليع وغيرها تمثل انعكاساً للتّطور الاقتصادي.

كما لعبت التّجارة دوراً كبيراً في نشر الدّعوات والآراء والمبادئ وقربت الأفكار من بعضها وكانت واسطة لنّقل الوسائل الحضارية إلى كثير من المجتمعات والبلدان لهذا كان لا بد من أن نتعرض بالتّفاصيل إلى الحياة الاقتصادية في الكوفة وكيف أحدثت هذه الحياة أثرها المطلوب في هذا المجتمع.

الفصل الأوّل

الثّروة الزّراعية

١- سياسة الدّولة الزّراعية:

لمَّ تنل الزّراعة في الكوفة العناية اللازمة عندما استوطنها العرب أول أمرهم حيث كانوا جنوداً محاربين تحت السّلاح متأهبين للقتال والرّحيل في كل وقت، والزّراعة كما نعلم تحتاج إلى الاستقرار والسّكنى قرب المناطق الزّراعية، وقد يؤدي هذا الاستقرار إلى فقدان العرب الرّوح العسكرية، وروح القتال التّي امتازت بها القبائل العربية القادمة إلى العراق.

يضاف إلى ذلك أن الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان حظرا على العرب سكنى المدن القديمة كالمدائن وغيرها من مدن العراق،وأمرا قادتهم أن ينزلوا العرب بمواضع بعيدة كل البعد عن المدن والقرى وحظرا عليهم الاشتغال بالزّراعة لئلا يتقاعسوا عن الحرب ويميلوا إلى التّرف فيفقدون بذلك ميزاتهم العسكرية وحماسهم للحرب.

وقد وجد عمر بن الخطاب ضرورة بقاء العرب أمة عسكرية كما وجد في تفريقهم على الأرض خطراً على وجودهم لقلة عددهم بالنّسبة للمغلوبين وقد تجلى ذلك في قول الطّبري فقال «أراد العرب الفاتحون أن يقسم عمر ابن الخطاب أراضي السّواد عليهم باعتبارها جزءاً من الغنائم التّي حازوها بانتصارهم على جيوش الفرس، ولكن عمر أبى ذلك عليهم وصمم على ترك هذه الأراضي لأصحابها مقابل دفع الخراج»[١].

ويضاف إلى هذا كله أن العرب الذّين استوطنوا العراق لم تكن لديهم الخبرة الكافية في شؤون الزّراعة لعدم درايتهم بالأساليب الزّراعية، حيث أن الجزيرة العربية التّي عرفت بالجدب والجفاف جعلتهم يبتعدون عنها كل البعد، كما أن القبائل العربية كانت تحتقر الزّراعة كثيراً.

وعلى هذا فقد ترك العرب الأراضي الزّراعية بيد سكانها الأصليين، وهم «النّبط» الذّين انتشروا في سواد العراق وكانوا يقومون بزراعة السّواد، وقد أشار كريمر إلى ذلك بقوله «كان أهل الولايات المغلوبة يحرثون ويبذرون والمسلمون يحصدون ولا عمل لهم سوى الحرب وشن الغارات»[٢].

---

(١) الطّبري، جـ٢ ص١٨٣.

(٢) فون كريمر: تاريخ الحضارة في الشّرق، جـ١ ص١٧١.

عندما فتح العرب السّواد تركوا تنظيم القرية على ما كانت عليه. فكان لكل قرية رئيس يدعى «دهقان» يشتغل أهالي القرية له، ثمَّ ظهر بمرور الزّمن ملاكون عرب وجدوا إلى جانب الدّهاقين التّي انحطت منزلتهم إلى مجرد جباة[١].

اهتم الخليفة عمر بن الخطاب اهتماماً كبيراً بالزّراعة فقام بإصلاحات واسعة في هذا المجال لتسهيل عملية الزّراعة على الفلاحين والمزارعين في الأراضي التّي استولى عليها العرب، وكانت أولى هذه الإصلاحات أن أرسل عثمان بن حنيف الأنصاري لمسح السّواد[٢] لمعرفة مقدار الأراضي الصّالحة للزّراعة وطلب من الفلاحين العناية بالتّربة وحرثها وإصلاح الطّرق والجسور[٣].

واهتم عمر أيضاً بمشاريع الرّي ونظمها تنظيماً يتفق مع الحاجة إليها.

فبعث أبا موسى الأشعري يأمره بحفر نهر بالبصرة بعد أن توجه الأحنف بن قيس زعيم البصرة بالشّكوى من فقر تربة البصرة وملوحة مياهها[٤] وقد سمح الخليفة عمر بن الخطاب لجنده بالاستيلاء على الأراضي الّتي لاحق لأحد فيها وهي أرض الأكاسرة والأراضي الّتي هرب أصحابها عنها[٥] كي لا تبقى بوراً دون زراعة الأمر الّذي يؤدي إلى ضرر مادي كبير، وسمح أيضاً بإحياء الأراضي الموات فقال: «من أحيا أرضاً موتاً ليست في يد مسلم ولا معاهد فهي له»، وروي أيضاً أنّه كتب إلى النّاس «من أحيا مواتاً فهو أحق به»[٦].

وفي الكوفة طلب دهاقين الأنبار من سعد بن أبي وقاص أن يحفر لهم نهراً كانوا قد سألوا عظيم الفرس حفره لهم فكتب إلى سعد بن عمرو بن حرام بحفره لهم[٧].

وفي خلافة عثمان بن عفان اقطع أراضي العراق[٨] ولاسيما صوافي كسرى على الصّحابة لزراعتها والاستفادة منها ولكن انشغاله بتهدئة الفتنة شغلته عن القيام بإصلاحات بارزة في مجال الزّراعة والرّي.

بذل الإمام علي جهوداً في خلافته لتشجيع الزّراعة على الرّغم من انشغاله في النّزاع مع معاوية، فأمر بحفر الأنهر وشق التّرع وتطهيرها، وقد أشار اليعقوبي إلى ذلك بقوله: «إنّ علي بن أبي طالب كتب إلى عامله قرظة بن كعب الأنصاري: أمّا بعد فإنّ رجالاً من أهل الذّمة من عملك ذكروا نهراً في أرضهم قد عفا وأدفن وفيه لهم عمارة على المسلمين فانظر أنت وهم ثمّ أعمر وأصلح النّهر فلعمري لئن يعمروا أحب إلينا من أن يخرجوا وإن يعجزوا أو يقصروا في واجب من صلاح البلاد والسّلام»[٩].

وقد اهتم الخلفاء الأمويون في الزّراعة واستصلاح الأراضي كما اهتموا في أمر البطائح وتجفيفها، وكانت البطائح مشكلة العراق الزّراعية الكبرى إذ كان نهرا دجلة والفرات يتفرعان عند مصبيهما في شط العرب إلى نهيرات كثيرة متشعبة وكانت هذه النّهيرات ضحلة فتفيض المياه على جوانب النّهيرات وتغرق القرى والأراضي الزّراعية، وفي أواخر العهد السّاساني في العراق انبثقت بثوق عظام فعجز كسرى عن سدها فطغى الماء على الأراضي والعمارات فتحول بذلك قسم كبير من الأراضي إلى بطائح واسعة.

ولمّا تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة طلب من مولاه عبد الله بن دراج عامل خراج العراق بمكافحة الفيضانات والاهتمام بأمر البطائح وتجفيفها، فاستخرج له من البطائح أراضي واسعة بلغت غلتها خمسة ملايين درهم في السّنة[١٠].

وقد تابع ولاة الأمويين الاهتمام بالزّراعة، فشجعوا الفلاحين على إحياء الأراضي الموات، فكان زياد بن أبيه يقطع الرّجل قطعة من الأرض تبلغ مساحتها ستين جريباً ويدعه سنتين فإنْ عمرها وزرعها أصبحت له وإلاّ أخذها منه[١١]، وقد وضع ولاة الأمويين شروطاً معينة لإحياء الأراضي الموات، أولها مطالبة الفلاحين بإقامة حاجز بينها وبين غيرها، وثانيها سوق الماء إليها إن امتازت بالجدب أو نزحه إن كانت بطائح، وثالثها حرثها جيداً بحيث يصبح سطحها مستوياً[١٢].

كما اهتم ولاة الأمويين بمشاريع الرّي عناية كبيرة، فأمروا بحفر الأنهار وشق القنوات وأقاموا القناطر والجسور والمسنيات[١٣] لمكافحة الفيضانات وحجز مياهها من غمر الأراضي المجاورة للنّهر، فقد بنى زياد بن أبيه جسراً كبيراً في الكوفة ليمنع فيضان الماء، وظل هذا الجسر طوال العهد الأموي، وقد أجريت عليه إصلاحات كثيرة في عهد ولاة بني أمية، مثل ابن هبيرة، وخالد بن عبد الله القسري ويزيد بن

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، جـ١ ص١٢، ١٣.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٨.
(٣) الطّبري، جـ٤ ص١٨٤.
(٤) ابن الفقيه الهمداني: مختصر البلدان ص١٩٨.
(٥) الطّبري، جـ٤ ص١٨٣.
(٦) السّيوطي: حسن المحاضرة، جـ١ ص٦٦.
(٧) البلاذري: فتوح البلاد، ص٢٧٣.
(٨) البلاذري: فتوح البلاد، ص٢٧٣.
(٩) اليعقوبي: التّاريخ جـ٣ ص١٧٩.
(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٩١.
(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٥٦.
(١٢) الماوردي: الأحكام السّلطانية ص١٧٧.
(١٣) المسنيات: السّدود وتتكون من قش وتراب يقام في وجه المياه الجارية.

هبيرة، ثمّ أصلحت بعد بني أمية مرات[١].

وعندما تولى الحجاج بن يوسف الثّقفي أمر العراق حدثت ثورات وفتن شغلت النّاس عن الزّراعة، وترك عدد كبير من الفلاحين مزارعهم والتحقوا بالثّوار وهاجر القسم الآخر إلى المدن تاركين قراهم مما أدى إلى انحطاط الزّراعة انحطاطاً كبيراً وبالتّالي أدى إلى قلة الخراج، وعلى الرّغم من ذلك كلّه قام بإصلاحات كبيرة، فقد اعتنى بشؤون الرّي، فحفر الأنهار الكثيرة كنهر الصّين ونهر النّيل ونهر الزّابي وغيرها، وقد عامل الحجاج العمال الّذين يقومون بحفر هذه الأنهار معاملة قاسية جداً فكان يجمع هؤلاء العمال ويربطهم بالسّلاسل حتّى لا يهربوا أو يتباطؤوا في العمل[٢].

كما اهتم الحجاج بزيادة مساحة الأرض المزروعة فجفف قسماً كبيراً من البطائح الّتي تمتد من الشّمال الغربي إلى جوار الكوفة[٣] ولكن الوليد بن عبد الملك عارض ذلك أوّل الأمر لكثرة المال اللازم لتجفيفها وقد أشار البلاذري إلى ذلك فقال: «إن بثوقاً انبثقت أيّام الحجاج وكبرت وعظمت وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأنّه قدر للنّفقة على سدها ثلاثة آلاف ألف درهم (ثلاثة ملايين) فاستكثرها الوليد فقال: له سلمة بن عبد الملك أنا أنفق على سدها من مالي على أن تعطيني خراج الأرضين المجففة الّتي لا يبقى فيها الماء بعد إنفاق المال على أيدي ثقاتك فأجابه إلى ذلك فحصلت له أرضون وطساسيج كثيرة، فحفر النّهرين المسميين بالسّيبين»[٤].

وقد اتخذ الحجاج إجراءات قاسية تتعلق بالفلاحين أنفسهم فقد منع هجرة الفلاحين من قراهم إلى المدن، فأمر بإرجاعهم إلى مزارعهم وقراهم بالقوّة ونقش على يد كلّ واحد منهم اسم قريته[٥]، وكان يخرج إلى المزارع والحقول يتفقد أحوال الزّراعة فيقف عند كلّ حقل ليسأل الفلاحين عن طرق الزّراعة وحال المحاصيل وكان يكتب -فضلاً عن ذلك- إلى عبد الملك بن مروان تقارير وافية عن كميات الأمطار الّتي تسقط في العراق[٦].

وقام الحجاج أيضاً بتسليف الزّراع من بيت المال لتخفيف حدّة الأزمة الّتي كانوا يعانونها، فأقرض الفلاحين مليوني درهم[٧].

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٥.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٨.
(٣) ابن حوقل، ص٢٣٨، الأصطخري ص٨١، ٨٢.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٩٢.
(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، جـ٣ ص٤١٦.
(٦) الجاحظ: البيان والتّبيين، جـ٣ ص٢٣٥.
(٧) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص١٥.

ومنع أهل السّواد من ذبح البقر لتوفير الأعداد اللازمة منه للحراثة والزّراعة والرّي، وقد لقي انتقادات كثيرة من سكان السّواد لهذا الإجراء فقال الشّاعر:

شكونا إليه خراب السّواد
فحرم جهلاً لحوم البقر[٨]

ولمّا تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قام بإصلاحات في مجال الزّراعة فحاول تخفيف الضّرائب عن كاهل الفلاحين واعتبر ذلك عملاً مشجعاً للفلاحين للإقبال على الزّراعة، فكتب رسالة إلى واليه على الكوفة يطلب منه العطف على الفلاحين وتخفيف الضّرائب عنهم وألا يحمل خراباً على عامر وألا يأخذ من العامر إلاّ وظيفة الخراج[٩] ونهى عمر ولاته عن تسخير الفلاحين في أعمال الأرض[١٠].

وحذا يزيد بن عبد الملك حذو عمر بن عبد العزيز في العناية بشؤون الزّراعة والرّي فأمر واليه على الكوفة عمر بن هبيرة سنة ١٠٥هـ بمسح السّواد وكانت هذه المرّة الثّانية بعد عثمان بن حنيف في عهد عمر بن الخطاب ولكن هذا المسح أدى إلى فائدة بيت المال وإلى الضّرر بالمزارعين فقد وضع ابن هبيرة على النّخل والشّجر وأضر بأهل الخراج، وأعاد السّخرة والهدايا وما كان يؤخذ في النّيروز والمهرجان[١١].

وقام ابن هبيرة بكري الأنهار وأصلح القنطرة الّتي بناها زياد بن أبيه في الكوفة[١٢].

ولمّا جاء خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق اعتنى أيضاً بشؤون الرّي والزّراعة فشق الأنهار والتّرع للحصول على كميات كبيرة من المحصولات الزّراعية فحفر نهر الجامع وأصلح القنطرة الّتي بناها زياد بن أبيه في الكوفة وحفر بئر المبارك[١٣]، وقام بتجفيف مستنقعات الجزء الأدنى من نهر دجلة وأضاف بذلك مساحات واسعة إلى أراضي الكوفة الزّراعية.

كان لمياه نهر الفرات وروافده وخصوبة التّربة أثرٌ في جعل سواد الكوفة من أغنى المناطق الزّراعية في العراق، وقد وصف الأصطخري هذا السّواد فقال: «إنّ سواد الكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من نهر الفرات»[١٤].

(٨) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص١٥.
(٩) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٠٧ (مخطوط).
(١٠) اليعقوبي: التّاريخ، جـ٣ ص٤٨.
(١١) اليعقوبي: التّاريخ، جـ٣ ص٥٥.
(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٥.
(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٤، ابن الفقيه: مختصر البلدان ص١٨٣.
(١٤) الأصطخري: المسالك والممالك ص٥٩.

ويمتد السّواد من غرب الفرات إلى الحيرة والقادسية على حدود الصّحراء[١].

وقد اعتمد قسم من سكان الكوفة في زراعتهم على الأمطار في بعض الأوقات وكان لتأخير نزول المطر أثر سيء على الحاصلات الزّراعية.

وعرف أهل الكوفة وسائل الرّي الصّناعية الرّاقية فاستعملوا النّاعور[٢] والدّولاب[٣] والدّالية[٤] وغيرها.

٢- أشهر الحاصلات:

اشتهرت الكوفة بزراعة عدد كبير من المحصولات الزّراعية كالحنطة والشّعير وقد زرعت هذه المزروعات في أرض السّواد، وإنّ خراج السّواد كان يؤخذ في كثير من الأحيان من الحنطة والشّعير، وقد ذكر قدامة بن جعفر بأنّ فلاحي السّواد كانوا يدفعون ١٧٧،٢٠٠ كر حنطة، و ٩٩،٧٢٢ كر شعير جزءاً من خراجهم سنوياً[٥]، ومن الحاصلات الزّراعية الأخرى الّتي اشتهرت بها الكوفة الأرز وكانت منطقة السّواد مركزاً هاماً لزراعته، وقد ذكر التّنوخي «أنّ حقول الأرز في الأراضي المنخفضة والأهوار قرب الكوفة وعلى قنوات الفرات السّفلى مثل سوراً ونهر الصّراة ونهر النّيل[٦].

ومن محصولات الكوفة الزّراعية أيضاً: السّمسم، والذّرة والماش والعدس والدّخن[٧].

وكان سواد الكوفة من أكبر مراكز زراعة النّخيل فتمتد مزارعه غرباً حتّى القادسية وشمالاً حتّى الأنبار وهيت[٨].

كذلك انتشرت زراعة الفواكه في الكوفة وكثرت، وكانت الكروم من أشهرها وقد كثرت أصنافها وتعددت أنواعها منها عنب «دير العاقول» و «عكبرا»، و «سروج» و «حلوان»[٩] وغيرها، وقد أشار البلاذري إلى كثرة الفواكه في العراق فقال لاحظ المغيرة بن شعبة أنّ إنتاج العراق من الفواكه زاد على إنتاج الحنطة والشّعير[١٠].

(١) الأصطخري، ص٧٢.
(٢) النّاعور: هو دولاب يديره تيار الماء وكانت منطقة النّهروان من المناطق الّتي تستعمل النّواعير في ري مزارعها.
(٣) الدّولاب: يدار من قبل حصان أو بقرة.
(٤) الدّالية: دولاب يديره ثور أو بقرة.
(٥) قدامة بن جعفر: الخراج ص٢٣٩.
(٦) التّنوخي: نشوار المحاضرة جـ٨ ص٦٧.
(٧) انب خرداذبة، ص١٣، ١٤.
(٨) الأصطخري، ص٥٨، ابن حوقل ص٢٤٠.
(٩) المقدسي، ص١٢٢، ١٢٣، ١٢٥.
(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٩.

وقد اشتهرت الكوفة ببساتينها الجميلة وكانت تحيط بها من جميع الجهات، ومن أشهر تلك البساتين، بستان «زائدة» وتقع في السّبخة وهي ضاحية من ضواحي الكوفة[١١] وقد امتازت الأديرة الّتي انتشرت في ضواحي الكوفة بأشجارها الباسقة وثمارها اليانعة وأزهارها الجميلة، وقد وصف الشّابشتي إحدى أديرة الكوفة فقال: «إنّه يحتوي على مائة بيت للرهبان وحول كل بيت بستان كبير فيه من كل الثّمار والنّخل والزّيتون، وكانت غلة كل بستان تباع حوالي مائتي دينار، وكانت الأنهار تجري في هذه البساتين»[١٢].

وقد زرعت أنواع من الزّهور والرّياحين وكان من أشهرها البنفسج والزّنبق الأبيض (أزاذ)[١٣] والنّرجس والورد الجوري، والعذاري، والأقحوان والشّيح والقيصوم والخزامى والياسمين والنّرجس[١٤] وغيرها، وكانت الأديرة مركزاً لزراعة الأوراد والرّياحين.

٣- أنواع الأراضي الزّراعية:

لقد كانت في الكوفة أنواع عدة من الأراضي الزّراعية الّتي استولى عليها العرب الفاتحون وهي:

١- أراضي الصّلح:

وهي الأراضي الّتي صالح أهلها المسلمين وبقيت ملكية هذه الأراضي بيدهم لقاء دفعهم ضريبة واحدة[١٥]، وكانت نسبة هذه الأراضي قليلة جداً في الكوفة، وتشتمل على أرض الحيرة بفضل معاهدتهم مع خالد بن الوليد[١٦] وسعد بن أبي وقاص، وبانقيا «ناحية من نواحي الكوفة» والأنبار[١٧].

٢- الأراضي الّتي فتحت عنوة:

وهذه الأراضي فتحت بحد السّيف وظلّت خاضعة لنظام الجباية والخراج وهي لا تباع ولا تشترى وتبقى ملكاً لصاحبها يستغلها في الزّراعة وقد أراد الخليفة عمر بن الخطاب أن تبقى هذه الأراضي مورداً مالياً ثابتاً للمسلمين والدّولة في عهده ومن بعده، وكان سواد الكوفة من الأراضي الخراجية بخلاف البصرة الّتي كانت أراضيها من أراضي الموات.

وقد طالب الفاتحون عمر بن الخطاب بتقسيم هذه الأراضي فقالوا له: «قسمه بيننا فإنّا فتحناه عنوة بسيوفنا فأبى

(١١) الطّبري، ج٢ ص١٠٢.
(١٢) الشّابشتي: الدّيارات ص١٧١.
(١٣) المقدسي، ص١٢٨.
(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٦، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٦ ص٢٤٨.
(١٥) يحيى بن آدم القرشي: الخراج، ص٩.
(١٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.
(١٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٧.

عمر وقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين»[1]، وقد استقر الخليفة عمر على هذا الرّأي بعد أن أيده عدد من كبار الصّحابة ومنهم علي بن أبي طالب الّذي قال لعمر: «إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء ولكن نقرها في أيديهم يعملونها فتكون لنا ولمن بعدنا»[2].

٣- الصّوافي:

وهي الأراضي الّتي كانت لكسرى وأهل بيته وأرض من قتل في الحرب وأرض من هرب[3]، وأوقاف البريد وأوقاف بيوت النّار والآجام وغيرها، حيث اصطفاها عمر بن الخطاب، وأصبحت ملكاً للدولة الإسلامية وقد بلغت وردات هذه الصّوافي سبعة الألف ألف درهم[4].

وقد ظلت هذه الصّوافي ملكاً للدولة الإسلامية حتّى جاء عثمان بن عفان فوزعها على المسلمين.

٤- الاقطاعيات:

كان سواد الكوفة ملكاً مشتركاً للمسلمين ووقفاً عليهم كما رأينا سابقاًولكن هذه القاعدة الّتي وضعها عمر بن الخطاب تغيرت بعد وفاته فأقطع عثمان بن عفان الأراضي لقسم من الصّحابة والتّابعين وبعض قادة الجيش، رغبة منه في إسكانهم منطقة الكوفة، أو تقديراً منه لخدماتهم الكبيرة وجهادهم في الإسلام، وكانت هذه القطائع على نوعين هي:

١- **قطائع خاصة:** وهي أراضي داخل مدينة الكوفة أقطعت لغرض تشييد المنازل والدّور عليها، وكان عددها تسع عشرة إقطاعية شيد عليها الصّحابة دورهم وسميت «مساكن الوجوه» وهم[5]:

طلحة أو تسمى دار الطّلحيين وكانت في الكناسة، والزّبير، وأسامة، وسعد وابن أخيه هاشم بن عتبة، وأبو موسى الأشعري، وحذيفة العبسي، وعبد الله بن مسعود، وسلمان الباهلي، والمسيب الفزاري وعمر بن حريث المخزومي، وجبير بن مطعم الثّقفي، وعتبة بن عمر الخزرجي، وأبو جبير الأنصاري، وعدي بن حاتم الطّائي، وجرير البجلي، والأشعث الكندي، والوليد بن عتبة وأخوه عمار، والفرات بن حيان العجلي، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وأم هاني (أرملة هبيرة المخزومي) وهي أخت علي بن أبي طالب.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٦٨.

(٢) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٢٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٢، أبو يوسف: الخراج ص٥٧، يحيى بن آدم القرشي: الخراج ص١٩٦.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٢.

(٥) ابن الفقيه: المعارف ص٧٩، ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٠.

٢- **قطائع عامة:** قطعت هذه الأراضي خارج الكوفة من الأراضي السّاسانية الواسعة «الصّوافي» لتكون لأصحابها مورد رزق ثابت لا يتعلق بالعطاء أو غيره وهم[6]:

١- أقطع طلحة بن عبد الله- النّشاستج.

٢- وأقطع عدي بن حاتم الطّائي- الرّدحاء.

٣- وأقطع وائل بن حجر الحضرمي- ضيعة زرارة.

٤- وأقطع خباب بن الآرت- صعبنا.

٥- وأقطع خالد بن عرفطة- أرضاً عند حمام أعين.

٦- وأقطع الأشعث الكندي- ظيز ناباذ.

٧- وأقطع جرير بن عبد الله البجلي، أرضاً على شاطئ الفرات (الجرفين).

٨- وأقطع عبد الله بن مسعود- أرضاً بالنّهرين.

٩- وأقطع عبد الله بن مالك الزّهري- قرية هرمز.

١٠- وأقطع عمار بن ياسر- أسبينا.

١١- وأقطع الزّبير بن العوام- أرضاً.

١٢- وأقطع أسامة بن زيد- أرضاً ثمّ باعها.

الفصل الثّاني
الحركة التّجارية

تمهيد:

(أ) تجارة الكوفة الخارجية:

١- التّجارة البحرية.

٢- التّجارة البرية.

(ب) تجارة الكوفة الدّاخلية.

(جـ) الصّادرات والواردات.

تمهيد:

إنّ تطور التّجارة في الكوفة وازدهارها يرجع إلى أسباب كثيرة منها موقعها الجغرافي على أطراف الوادي الخصيب قرب الصّحراء إذ هيأ لها أن تكون محطة مهمة في طريق الحج وملتقى القوافل القادمة من الجزيرة العربية[7] والشّام ومصر، كما أنّ هذا الموقع جعلها نقطة التقاء وتبادل بين إيران والهند وأواسط آسيا والصّين شرقاً والشّام ومصر وشمال أفريقيا غرباً[8]، وأنّ وقوعها على نهر الفرات

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٢، ٢٧٣، ماسنيون: خطط الكوفة ص٢١.

(٧) ابن رستة: الأعلاق النّفيسة ص٤٧٥.

(٨) صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية في البصرة ص٢٢.

جعلها تتصل بالشّمال بحلب وأنطاكية ثمّ بالبحر الأبيض المتوسط كما تمكنت عبر نهر الفرات من أن تتصل بالهند عن طريق الخليج العربي، أنّ هذا الموقع الجغرافي الممتاز لمدينة الكوفة جعلها تتمتع بشهرة واسعة في عالم التّجارة في ذلك العصر والسّيطرة على تجارة العراق الخارجية، وهكذا قدر لسكان العراق عامة والكوفة خاصة أن يصبحوا وسطاء ناجحين في تجارة العالم.

ومن هذه العوامل أيضاً أنّ الدّولة شجعت التّجارة بصورة مباشرة فقامت بعدد من المشاريع الّتي سهلت عملية التّجارة فشقت القنوات[1] والتّرع وأقامت الجسور[2] والقناطر، كما أنّها نشرت الأمن والنّظام في ربوع العراق وحاولت حراسة الطّرق ومراقبتها والقضاء على قطاع الطّرق واللصوص كما أنّها أقامت محطات تجارية في الطّرق التّجارية للراحة وتبديل الدّواب، فضلاً عن أنّ الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدّولة شجعوا الطّلب على البضائع الأجنبية وقدموا التّسهيلات اللازمة لها وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فعفا التّجار عن بعض الضّرائب المفروضة على البضائع.

كما أنّ نفوذ العراق السّياسي وقوته وسع بشكل واضح نشاط العمل التّجاري في الكوفة وثمة عامل مهم جداً كان له تأثير فعال في التّجارة وهو أنّ سكان الحيرة الّذين نزحوا إلى الكوفة بعد تمصيرها لعبوا دوراً كبيراً في تنشيط التّجارة في المدينة لما لهم من خبرة واسعة وممارسة طويلة في هذا الميدان فكانوا يجوبون بلاداً كثيرة طلباً للتجارة والرّبح حتّى قال ابن الفقيه: «وأبعد النّاس نجعة في الكسب بصري وحيري، ومن دخل فرغانة القصوى والسّوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حيرياً»[3].

وقد أكد الجاحظ هذا الرّأي فقال: «إنّه ليس في الأرض بلدة واسعة ولا نائية شاسعة ولا طرف من الأطراف إلا وأنت وأجدبها المديني والبصري والحيري».

معنى هذا التقاء الخبرة الواسعة الّتي قدمها تجار الحيرة والموقع الجغرافي الممتاز، والغنى الوافر، والمال الكثير الّذي جاءها من الفتوحات، جعلها بلداً تجارياً ممتازاً استطاعت أن تكون علاقات تجارية نشيطة مع بقية أقطار العالم.

وكانت التّجارة في الكوفة مربحة جداً درت على التّجار أرباحاً طائلة، وقد جاء في الحديث النّبوي الشّريف: «تسع أعشار الرّزق في التّجارة».

وقد أشار الطّبري إلى أنّ عمر بن الحريث جاء إلى مسجد الكوفة واشترى من غنائم نهاوند بمليون درهم ثمّ باعها بمليوني درهم[4].

(أ) تجارة الكوفة الخارجية[5]

١- التّجارة البحرية:

كان ظهور الدّولة العربية وتوحيد الشّرق الأوسط من أهم العوامل الّتي ساعدت على نشر الأمن والسّلام فتحولت التّجارة من البحر الأحمر، وصارت تسلك طريق خليج البصرة حيث كان

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٨٤، ٢٨٢٧، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٥٧، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٧.

(٣) ابن الفقيه: البلدان ص١٥- ١٩١.

(٤) الطّبري ج٣ ص٢٠٥، البيروتي: الجماهير في معرفة الجواهر ص٦٩.

(٥) لقد كان للعراق القديم صلات وعلاقات تجارية مع الشّرق قديمة جداً ترجع إلى حوالي القرن السّابع ق. م في عصر البابليين والآشوريين (يوسف غنيمة: تجارة العراق قديماً وحديثاً ص٢٥).

حيث أنّ البصرة مهيأة منذ القدم لأن تكون مدينة تجارية تنتهي إليها الطّرق الآتية من إيران والهند حيث أطلق العرب على المنطقة الّتي كانت فيها الأبلة أرض الهند (انظر الطّبري ج٢ ص٥٥٣) وذلك لاتصال هذه المنطقة المستمر بالهند وسكنى عدد كبير من الهنود فيها.

وكان البابليون يصلون بسفنهم إلى الهند فيحصلون على كثير مما يحتاجون إليه من المواد الكمالية الغالية والأحجار الكريمة والبهارات والتّوابل والعاج والقرنفل والأخشاب الصّلبة وبعض المنسوجات الحريرية والعقاقير (يوسف غنيمة- تجارة العراق قديماً وحديثاً ص٢٥- ٢٦) واتخذت بابل من دجلة والفرات معبرين كبيرين للسفن التّجارية وكان في إشرافها المباشر على الخليج العربي أثراً كبيراً في تلك التّجارة، وقد أقامت على الخليج العربي مستودعات تجارية ضخمة ويسرت وسائل الاتصال ووسائل المراقبة للسفن الوافدة من جميع الجهات، وترجع شهرة البصرة ثمّ بغداد في العصر الإسلامي بالتّجارة إلى هذه الأسباب.

وقد بلغ من عناية الحكومة بالتّجارة أنّها ندبت نفسها للإشراف عليها كما سعرت السّلع وسنت شروطاً قانونية للمعاملة ولحركة البيع والشّراء وكان للبابليين والآشوريين سفن بحرية ضخمة وظل لإقليم العراق صبغة تجارية متمركزة في الأبلة والبصرة في عهد الإسكندر أيضاً ثمّ في أيّام الفرس والسّلوقيين والأشكانيين والسّاسانيين (انظر الطّبري ج٤ ص١٤٨- ١٥٠) غير أنّ هذه التّجارة تناقصت إلى حد ما في العهود السّاسانية نظراً لتشجيع خصومهم البيزنطيين التّجار عن طريق البحر الأحمر الّذي كان رغم بعده أمن وأسلم لبعده عن سيطرة السّاسانيين (صالح العلي- التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص٢٢٩)، ولكن الفرس استطاعوا أن يحكموا الطّريق البحري الّذي يربط الهند بالعراق عن طريق الخليج العربي والمحيط الهندي وبقيت السّيادة لهم على بحر الهند (المحيط الهندي) فقط سيادة مطلقة حتّى أنّ سكان الهند وسكان الحيرة لم يجدوا غير هذا الطّريق، فكان الفرس والهنود والعرب يذهبون إلى جزيرة سرنديب (سيلان) ومنها يشترون البضائع الّتي ترد من الصّين وقد سير الفرس وسكان الحيرة سفنهم للوصول إلى البحر ونقل البضائع التّجارية في الفرات وانحدروا إلى دجلة العوراء (شط العرب) كما نسميه اليوم ثمّ إلى البحر (يوسف غنيمة: تجارة العراق قديماً وحديثاً ص٢٦).

هذا وقد لاقت هذه التّجارة مصاعب كثيرة وعقبات نتيجة لسقوط الإمبراطورية السّاسانية حيث تحطمت على أثر ذلك ارستقراطيتها الّتي كانت أهم مستهلك لسلعها، محلها محل العرب الّذين يفضلون المنتجات المحلية (صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص٢٢٩).

أقصر وأسلم وأقل كلفة، ونفقة، وكانت ملاحة العرب في الواقع تقتصر على المحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وظلت الأبلة[1]- مرفأ لتجارة العراق، وكان شط العرب ملتقى السّفن التّجارية القادمة من الشّرق والغرب، وكان يتفرع من البصرة طريقان بحريان رئيسيان أحدهما يذهب إلى الغرب متجهاً إلى البحر الأحمر فيدور حول الجزيرة العربية ماراً بالبحرين وعدن حيث كانت عدن يومها مرفأ لمراكب الهند وكان التّجار العرب السّائرون في البحر الأحمر لا بد لهم أن يعرجوا على سواحل أفريقيا الشّرقية حتّى سفالة (موزنبيق)[2].

أمّا الطّريق الثّاني فيسير من البصرة شرقاً إلى الهند[3] ثمّ الصّين، وقد كانت التّجارة البحرية مع الهند نشيطة جداً لقربها من العراق، فضلاً عما يلقاه التّجار الهنود من تشجيع، وقد اشتهر السّيرافيون والعمانيون بالتّجارة مع الصّين بصورة خاصة[4].

وكانت السّفن التّجارية تمرّ بسواحل بلاد فارس حاملة أنواع السّلع من منتجات العراق، ومما ترد إليه من بلاد سوريا واليونان أيضاً كالحديد والنّحاس والقصدير، وكان التّجار بعد أن يقضوا وطرهم من البيع والشّراء تنشر السّفن الشّراعية أشرعتها موغلة في البحر لبيع سلعهم ويشترون من الأمصار الّتي يمرّون عليها كأثواب الحرير والإستبرق، والقرنفل، والدّار الصّيني والتّوابل والزّعفران والصّمغ والصّدف والعاج والأحجار الكريمة والعطور وغيرها من حاصلات الثّغور[5].

ثمّ تأتي السّفن وتفرغ تلك السّلع في العراق فيأخذ الأهلون حاجتهم منها ويبعث بالباقي إلى سوريا والإسكندرية وإلى البلاد العربية ومصر[6] وكان العراق همزة وصل بين دول الغرب وبين الهند في وقت لم يعرف فيه طريق رأس الرّجاء الصّالح.

وقد ذكر ابن خرداذبة: «أنّ تجار العراق كانوا يتاجرون مع جزيرة سيلان ويشترون منها الأحجار الكريمة وخاصة العقيق ثمّ التّوابل ويأخذون إليها البضائع ومنها النّبيذ العراقي[7] الشّهير.

وقد تصل السّفن العربية المبحرة من الهند إلى (خانقو) أي (كانتون) ميناء الصّين الشهير بعد أن تمرّ في طريقها بخليج البنغال وبحر الصّين.

وكانت السّفن التّجارية تتبع حركة الرّياح الموسمية فتقلع من البصرة في أواخر فصل الخريف وأوائل فصل الرّبيع حيث تهدأ الرّيح وكان المحيط الهندي لا يصلح للملاحة إلا في فصل الشّتاء[8]، وقد قيل إنّ الرّحلة إلى الصّين كانت تستغرق سنتين[9].

أمّا الطّريق البحري الّذي يبدأ من البصرة ويسير مخترقاً الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر فإنّه صالح للملاحة في جميع فصول السّنة[10]، ولكن هذا الطّريق كانت تكثر فيه قراصنة البحر لهذا كان على السّفن التّجارية أن تزود بالحراس لمقاومة هجمات القراصنة ولصوص البحر، وقد ذكر المقدسي أنّه: «لا بد في كل مركب من مقاتلة ونفاطين لحماية المركب وكانت أخطر منطقة في هذا الطّريق (سقطرى) وهي منطقة تجمع القرصان الهنود»[11].

وكانت السّفن التّجارية تختلف في أحجامها نسبة للبحار الّتي تبحر فيها فالسّفن الّتي تسير في الخليج الفارسي والمحيط الأطلسي كانت كبيرة جداً ترتفع عن سطح الماء حتّى يستعمل النّاس السّلالم للصعود إليها، وكان ارتفاعها يبلغ نحو العشرة أقدام، وقد كانت الأبلة ميناء السّفن البحرية[12] الكبيرة، أمّا السّفن الصّغيرة (القوارب) فهي للتجارة النّهرية ولتجارة السّواحل وقد استعملت هذه القوارب في النّزع والأنهار والأهوار بكثرة لأغراض تجارية وعسكرية، فقد سار خالد بن الوليد من (أمغيشيا)[13] إلى الحيرة وحمل الرّجال والأثقال في السّفن وسيرها في نهر الفرات، وقد استعملت القوارب الصّغيرة أيضاً لنقل الجيوش البصرية الّتي كانت تحارب في الأهوار[14] كما نقل مصعب بن الزّبير جيشه، من البصرة إلى الكوفة في هذه القوارب الصّغيرة[15].

وقد نشطت التّجارة النّهرية في الكوفة بمرور الزّمن حتّى وصلت أوجها في العصر العبّاسي الأوّل، مما دعا الخليفة المنصور في سنة (١٤٥هـ) إلى حفر خندق كبير حول الكوفة وفتح له مجرى من الفرات ونصبت عليه قناطر من زوارق

(١) المسعودي: مروج الذّهب ج١ ص٨٩، غزا عتبة بن غزوان الأبلة وفتحها عنوة وكتب إلى عمر يعلمه ذلك ويخبره أنّ الأبلة فرضة البحرين وعمان والهند والصّين، البلاذري: فتوح البلدان ص٣٤٠.

(٢) المسعودي: مروج الذّهب ج١ ص١١٥.

(٣) المسعودي: مروج الذّهب ج١ ص١١٧.

(٤) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص٢٧١، يوسف غنيمة: تجارة العراق قديماً وحديثاً ص٢٩.

(٥) يوسف غنيمة: تجارة العراق ص٢٩.

(٦) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٦٧.

(٧) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٦٢.

(٨) ابن رستة: الأعلاق النّفيسة ص٦.

(٩) المروزي: في الصّين والتّرك والهند، ج١ ص٦٣.

(١٠) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٢.

(١١) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٤.

(١٢) الجاحظ: البيان والتّبيين ج٣ ص٢٥٨.

(١٣) وهي مدينة في جنوب العراق.

(١٤) ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٣٩٨.

(١٥) الطّبري: ج٢ ص٧٢٤.

ذوات أبواب بغية تسهيل المواصلات التّجارية[1].

وقد اتصلت الكوفة فيما بعد ببغداد حيث كانت السّفن القادمة من الفرات تسير في نهر عيسى[2] حتّى المحول «الّتي تقع غرب بغداد على بعد فرسخ منها، حيث تنقل أحمالها إلى قوارب صغيرة تتمكن من السّير في نهر الصّراة- وهو فرع من نهر عيسى- إلى بغداد»[3].

وقد تمتعت الملاحة في أنهار العراق والبحار المتصلة بها بحرية تامة لجميع النّاس فلم تقتصر على شعب من الشّعوب أو أمة من الأمم وليس أدل على ذلك من رغبة عمر بن عبد العزيز حين كتب كتاباً أرسله إلى جميع ولاته في الأقطار المشرفة على بحار أو أنهار كبيرة يقول فيه: إنّ جميع البحار وحرية التّجارة فيها مباحة لجميع الدّول ما لم تشكل هذه الدّول خطراً على المسلمين عملاً بالآية الكريمة: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وكانت توجد محطات على الطّرق النّهرية الهامة ومراكز حراسة لحماية السّفن التّجارية من اللصوص وذلك لضمان سلامة المواصلات واستمرارها[4] وكانت تجبى في هذه المحطات الضّرائب التّجارية الّتي تسمى المكس.

وقد ذكر ابن رستة بأنّه توجد في المحلات اليابسة الّتي توجد بين الممرات المائية (عند البطيحة) بيوت من القصب فيها حراس يشرفون على سلامة المواصلات[5].

وكان ميناء (الكلأ) ميناء خاصاً للقوارب والسّفن النّهرية الّتي كانت تحمل التّجارة بين البصرة والكوفة من جهة وبين الأهواز من جهة أخرى.

لم تكن البوصلة معروفة إذ ذاك وإنّما كان البحارة يستعينون بالظّواهر الطّبيعية كالشّمس والقمر والنّجوم، وكان أغلب ملاحي المحيط الهندي من العراقيين والسّيرافيين والعمانيين[6]، وكان هؤلاء الملاحون يسترشدون بخرائط في رحلاتهم، وليس أدل على ذلك من قول المقدسي: «ورأيت معهم (أي التّجار) دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها»[7]، كما استعانوا بالحمام الزّاجل لنقل الرّسائل بين السّفن والموانئ.

لقد كان خليج البصرة ضحلاً عند مصب دجلة العوراء، فإذا بلغته السّفن الكبيرة ارتطمت بالأرض وتحطمت فأنشيءَ لذلك منار في البحر تسترشد به السّفن الذّاهبة إلى البصرة[8].

٢- التّجارة البرية:

كانت تجارة الكوفة البرية نشيطة طول السّنة، لوقوعها على حافة الصّحراء كما أنّها كانت نقطة التقاء الطّرق البرية الّتي توصلها بالشّرق والطّرق الّتي توصلها بالغرب، ومن هذه الطّرق الرّئيسية، الطّريق الشّرقي مع إيران ولا سيما خراسان وما وراء النّهر وكان التّجار القادمون إلى هذه المناطق يسلكون طريق خراسان المشهور الّذي يمرّ بالكوفة ثمّ إلى همدان وقزوين والرّي ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند وكان يتشعب هناك إلى فرعين أحدهما يذهب إلى الشّمال حيث خوارزم، والفرع الآخر إلى الشّرق حيث الصّين.

وكانت للكوفة علاقات مهمة مع إيران فقد كانت إيران تابعة لولاية الكوفة إدارياً وخاضعة لسلطة أمير الكوفة أو واليها الأمر الّذي جعل التّجارة مع إيران قوية ونشيطة جداً طوال أيّام السّنة وكانت تستورد منها الفاكهة بكميات كبيرة[9].

وكان العراق عامة (والكوفة خاصة) مركزاً مهماً لتجارة التّرانسيت الإيرانية في طريقها إلى الحجاز وغيرها.

ومن الطّرق المهمة أيضاً الطّريق الجنوبي مع الجزيرة العربية والشّام والطّريق الغربي الّذي يتجه إلى مصر وشمال أفريقيا، وكان الطّريق الجنوبي ينشط في مواسم الحج[10]، أمّا التّجارة البرية مع الصّين فكانت ضئيلة جداً وذلك لطول الرّحلة وبعد الطّريق، وكان التّجار يفضلون الطّريق البحري في تجارتهم مع الصّين[11].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ج٥ ص٢٥٨، الطّبري ج٧ ص١٤٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٧، ماسنيون: خطط الكوفة ص١٨.

(٣) اليعقوبي: البلدان ص٢٥٠، ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص٤٣٦ في سنة (٣١٥هـ- ٩٢٧م) أرسل علي بن عيسى ثلاثمائة قارب من دجلة إلى الفرات في هذا الطّريق وكان نهر النّيل يصل بين الفرات ودجلة في العراق الجنوبي، اليعقوبي: البلدان ص٤٢٣.

(٤) ابن رستة: الأعلاق النّفيسة ص١٨٤.

(٥) ابن رستة: الأعلاق النّفيسة ص١٨٥.

(٦) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص٩٢.

(٧) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٠.

(٨) كان هذا المنار على شكل بيوت أنشأت فوق جذوع نخل منصوبة في البحر يبلغ ارتفاعها حوالي خمسين قدماً فوق سطح الماء ورتب في البيوت قوماً يوقدون النّار في الليل حتّى تتباعد المراكب عن الأماكن الضّحلة. الأصطخري: المسالك والممالك ص٨٩، المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٢، ناصر خسرو: سفرنامة ص١٠٠.

(٩) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٣١- ٣٢.

(١٠) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٣٣.

(١١) المسعودي: مروج الذّهب ج١ ص١١٧، ذكر المسعودي فقال: ((إنّ رجلاً من التّجار من أهل مدينة سمرقند في بلاد خراسان خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتّى انتهى إلى العراق فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتّى أتى إلى بلاد عمان وركب إلى بلاد ((كله)) وهي النّصف من طريق الصّين أو نحو ذلك وإليها تنتهي مراكب الإسلام من السّيرافيين والعمانيين في ذلك الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصّين في مراكبهم.. وعلى هذا فقد ركب هذا التّاجر من مدينة (كله) في مراكب الصّينيين إلى مدينة خانقون (ميناء الصّين)- المسعودي: مروج الذّهب ج١ ص١١٧.

أمّا الطّريق البري إلى الهند فكان شاقاً وطويلاً، وكان ينطلق من الكوفة إلى خراسان ومن خراسان إلى السّند ثمّ الهند.

وأشار ابن خرداذبة إلى طريق آخر كان اليهود يسلكونه في القرن الثّالث الهجري مسافرين من البصرة إلى الأهواز وكرمان ثمّ إلى السّند أو الهند[1] والصّين، ولا ندري أسلك التّجار العرب في القرن الأوّل الهجري هذا الطّريق أم لا.

واتصلت الكوفة بشبه جزيرة العرب اتصالاً قوياً ولاسيما بمكة والمدينة[2] وكان التّجار ينشطون كثيراً في موسم الحج، وكانت كناسة الكوفة محطة تجارية لهم تمركزت فيها أعمالهم التّجارية.

واتصلت الكوفة أيضاً بدمشق[3] عبر الطّريق الجنوبي الّذي يربط الكوفة ببلاد العرب والشّام، وكان الفرات الشّريان الرّئيسي لهم حيث يصل بين سوريا والرّقة شمالاً وبين الكوفة والبصرة جنوباً، وكانت السّفن التّجارية تأتي باستمرار محملة بالبضائع السّورية مبحرة في نهر الفرات.

كان للعرب محطات تجارية على الطّرق التّجارية البرية شمالاً وغرباً تقيم فيها (جاليات) عراقية، ففي الشّرق أشار ابن حوقل إلى وجود مثل هذه المحطات في سمرقند وفيها جالية عراقية[4]، كما أشار إلى وجود جالية من التّجار العراقيين من أهل الكوفة والبصرة وبغداد[5] تقيم بسجلماسة، وكان لتجار العراق بمصر وكلاء من يهود العراق، وأغلب الظّن أنّ مثل هذه المحطات التّجارية لم تظهر في القرن الأوّل الهجري، وإنّما ظهرت في القرن الثّالث الهجري عندما توسعت التّجارة وأصبح لها وسطاء ووكلاء.

هذا وتقوم الحكومة عادة بإنشاء الطّرق التّجارية وإصلاحها وتقسيمها إلى أميال[6] ومراحل وحمايتها من اللصوص وقطاع الطّرق وكان لقوة الحكومة وسيطرتها أثرٌ كبيرٌ في عملية التّجارة، فالحكومة الضّعيفة لا يمكن أن تحمي طرقها بل تصبح تحت رحمة قطاع الطّرق واللصوص الأمر الّذي يؤدي إلى عرقلة التّجارة واضطرابها وبالتّالي يؤدي إلى ندرة البضائع وارتفاع أسعارها ارتفاعاً فاحشاً.

لذلك فإنّ الحكومات كانت تبدي اهتماماً كبيراً بحماية الطّرق وتأمين وصول البضائع، كما أقامت الحكومة محطات للاستراحة على طول الطّريق، وقيل أنّه بلغ الحَجاج أنّ قوماً من الأعراب يفسدون الطّريق فكتب إليهم كتاباً يتهددهم فيه.. فكفوا عن الطّريق[7].

ولما ولي زياد بن أبية أمر العراق طلب من رؤساء القوم حماية الطّرق وحدد لكل رجل منهم حداً، فساد الأمان والاستقرار في الطّرق التّجارية حتّى أنّه كان يقول: «لو ضاع حبل بيني وبين خراسان عرفت من أخذه»[8].

كان اهتمام الحكومة بطرق التّجارة أمراً جوهرياً في العصور الإسلامية فكانت الطّرق تقسم إلى مراحل أو منازل أو محطات، وتبلغ المسافة بين كل محطتين حوالي فرسخين[9]، وفي كل محطة بدالة فيها الدّواب والخيول، ويعتنى بها في هذه الاصطبلات سواس مهرة[10]، وكانت هذه الطّرق تحت إشراف صاحب ديوان البريد الّذي له خبرة واسعة بأحوال الطّرق قال قدامة بن جعفر: «ينبغي أن يكون صاحب البريد عالماً بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره في وصف حال المنزل في مائه وخشونته وسهولته وعمارته»[11].

(ب) تجارة الكوفة الدّاخلية- الأسواق:

تركزت التّجارة في مناطق معينة من الكوفة فكانت الكناسة من أهم هذه المراكز لوقوعها عند الباب الغربي قرب البادية[12] وكانت الكناسة[13] محطة تجارية كبرى مع الجزيرة العربية فكانت موضعاً لإناخة الإبل وتحميل البضائع وتفريغها، كما كانت تباع فيها الماشية والإبل في سوق البراذين[14]، وبها سوق خاص لبيع الرّقيق[15] وكانت تباع فيها غنائم الحروب، ولما انحطت الكوفة في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الهجري أصبحت ضاحية منعزلة لا شأن لها ولا أهمية[16].

ومن مراكز التّجارة أيضاً (دار الرّزق) وتقع على الضّفة اليمنى لنهر الفرات عند رأس الجسر المنصوب على هذا النّهر، وقد بناها المسلمون أوّل الأمر لتكون مخزناً كبيراً لجمع غنائم الحروب[17] وأموال الصّدقات قبل توزيعها على المقاتلة[18]، ثمّ

(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٥٣.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٢٨.
(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٩٩.
(٤) ابن حوقل: المسالك والممالك ص٣٧٢.
(٥) ابن حوقل: المسالك والممالك ص٤٢.
(٦) وهذا نص ((أمر بعمارة هذا الطّريق وصنعة الأميال عبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين رحمة الله عليه من دمشق إلى هذا الميل تسعة ومائة ميل Repertoire: vol. ١. P. ١٣.
(٧) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص٦٦، ديمومبين: النّظم الإسلامية ص١٥٥.
(٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١ ص٥١.
(٩) الفرسخ: يساوي ٦كم.
(١٠) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص٦٦، ديمومبين: النّظم الإسلامية ص١٥٦.
(١١) قدامة بن جعفر: الخراج ص١٨٥ ((مخطوط)).
(١٢) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١١٧.
(١٣) الكناسة في الكوفة مثل المربد في البصرة مكان واسع للتجارة (ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١).
(١٤) ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.
(١٥) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١١٧، ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.
(١٦) البراقي: تاريخ الكوفة ص٢٢.
(١٧) البراقي: تاريخ الكوفة ص١٤٥.
(١٨) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.

تطور هذا المخزن تدريجياً فأصبح مركزاً تجارياً هاماً في تجارة الكوفة وقامت دار الرّزق بدور كبير في الحركات والاضطرابات والفتن الدّاخلية الّتي حدثت في الكوفة[1] في تاريخها الطّويل وبالإضافة إلى هذه المراكز كانت هناك أسواق كثيرة في المصر لعرض البضائع وبيعها على النّاس.

وقد سبق أن قلنا إنّ العرب عندما سكنوا الكوفة لم ينسوا مدرستهم الأولى في العصر الجاهلي والإسلامي وهي الأسواق وقد أنشؤوا هذه الأسواق لتحل محل أسواقهم الشهيرة كسوق عكاظ وغيرها وكانت هذه في أوّل أمرها مناطق معينة يجلس فيها الباعة دون أن تكون لها حدود معينة أو بناء معين وكانت تغطى سقوفها بالحصر في بعض الأحيان حتّى زمن الوالي خالد القسري. حيث عقدت بالحجارة والجص وكانت هذه الأسواق تمتد من جسر الكوفة حتّى مركز المدينة.وقد لعبت أسواق الكوفة دوراً كبيراً في الحياة السّياسية فكانت مراكز للثّورة على الحجاج وسياسته[2] وقد تطورت هذه الأسواق فيما بعد فصارت نموذجاً احتذي به في بناء أسواق بغداد[3].

أشهر الأسواق:

سوق البراذين: وهو سوق لشراء واستئجار الحمير والبغال والإبل وغيرها ويقع هذا السّوق بجانب الحدادين[4].

وسوق الحدادين: وكان يصنع فيه بعض الآلات الحّديدية كالسّيوف وغيرها من الحاجات الضّرورية للسكان[5].

وهناك سوق الغّنم لبيع وشراء الأغنام ويقع شرق الكّناسة على تخوم مذحج[6].

وسوق الصّاغة: وتصنع فيه بعض المصوغات الذّهبية كالحلي وغيرها من أدوات الزّينة وأصبح لهذا السّوق أهمية كبرى عندما توغل أهل الكوفة في التّرف وزاد اهتمامهم بالكماليات فضلاً عن صناعة أدوات الزّينة، ويقع هذا السّوق بالقرب من الجامع في الجهة الجنوبية[7].

وهناك سوق الخز والقصارين: وهو خاص لبيع الخز الّذي اشتهرت به الكوفة سنين طويلة ويوجد في هذا السّوق مكان للقصارين[8].

(١) نفس المصدر ص٢٢.
(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ج٢ ص٦٩.
(٣) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.
(٤) نصر بن مزاحم: صفين ص٦٨، ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.
(٥) ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.
(٦) الطبري: ج٢ ص١١٠، ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.
(٧): خطط الكوفة ص٢٦.
(٨) القصارون: هم محورا الثياب (الخياطون).

وكذلك سوق أصحاب الأنماط ويقع هذا السّوق في أطراف دار الوليد[9].

وهناك سوق لبيع الحنطة والسويق[10]،

وسوق البزازين[11]: وهو خاص لبيع الأقمشة والمنسوجات المختلفة.

أما سوق الصّيارفة والسّماسرة فكانت من أهم وأشهر أسواق الكوفة وكانت تقع حوانيت الصّيارفة في مسجد بني جذيمة[12]، وفي جوارهم تقع حوانيت سماسرة العبيد ثمّ المكارية في جوانب الكّناسة[13]. وكان هؤلاء الصّيارفة، وأكثرهم من الأقلية المسيحية، الّذين نزحوا من الحيرة واستوطنوا الكوفة يتحكمون في المسكوكات الفارسية الفضية والمسكوكات البيزنطية الذّهبية وتركزت تجارة التّبادل و الصّيرفة في أيديهم[14].

وسوق الزّياتين: فكان خاصاً لبيع الزّيت المستخرج من السّمسم وبذور القطن والكّتان وكان يقع هذا السّوق قرب قصر الإمارة[15].

وفي أسواق الكوفة كان يجلس (صاحب السّوق)[16] لمراقبة الباعة، ومراقبة الأوزان والمكاييل والخبازين والقصابين والجزارين وغيرهم. وكان بعض الولاة يشرفون بأنفسهم على مراقبة السّوق والموازين والمكاييل ويتجولون في أسواق الكوفة ويأمرون النّاس بالمعروف وينهون عن المنكر وأن يعدلوا في موازينهم ومكاييلهم.

فقد ذكر ابن سعد انّ علياً كان يمشي في الأسواق ويأمر النّاس بتقوى الله وحسن البيع فيقول: «أدّوا الكيل والميزان ويقول لا تنفخوا اللحم»[17]. قال شريح قاضي الكوفة: مررت مع علي بن أبي طالب في سوق الكوفة وفي يده الدرة وهو يقول: «يا معشر التّجار خذوا الحق وأعطوا الحق، تسلموا لا تعطوا قليل الربح فتحرموا كثيراً»[18] كما أن زياد بن أبيه كان يذهب إلى الأسواق للتفتيش على الأسعار والمكاييل والموازين. وكان يسأل عماله عن الأسواق والأسعار فيها[19].

(٩) ابن الفقيه: البلدان ص١٨٢.
(١٠) السّويق: هو طحين الشعير، انظر ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٦.
(١١) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.
(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٤.
(١٣)ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.
(١٤) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.
(١٥) الطبري: ج٧ ص١٥٦.
(١٦) صاحب السّوق: وهي تطور لوظيفة الحسبة فيما بعد.
(١٧) ابن سعد: الطبقات الكبير ج٣ قسم١ ص١٨.
(١٨) وكيم: أخبار القضاة ج١ ص١٩٦.
(١٩) البلاذري: أنساب الأشراف ج٤ ص٣٤٠(مخطوط).

ولم تقتصر أعمال الحسبة في الكوفة على ذلك وإنما تعدتها إلى النّظر في الطعام، واللّباس، والمساكن والجوامع ومراعاة أحوال الفقراء والمعوزين[١]. وكانوا يراقبون أيضاً الصّباغين والحاكة كي لا يهربون بأموال النّاس أو حاجاتهم، وكان صاحب السّوق عادةً يتقاضى راتباً على أعماله هذه من بيت المال[٢].

وكان للمحتسب أو(عامل السّوق) أعوان يساعدونه على القيام بواجباته[٣] وكان ديوان المحتسب يقع بين حوانيت الصّيارفة والسّماسرة[٤] في الكوفة، على أن وظيفة المحتسب هذه تنظمت لأوّل مرة بصورة مرضية في تاريخ الكوفة في عهد ابن هبيرة حوالي سنة ١٠٣ه، وكان المحتسب قبل هذا يسمى صاحب السّوق وكان عاصم بن الأحول على الحسبة والمكاييل والموازين في الكوفة[٥] في عهد ابن هبيرة.

(ج) واردات الكوفة وصادراتها

قلنا أنّ مدينة الكوفة كانت على صلات تجارية مهمة مع مدن العراق والجزيرة العربية بصورة خاصة والدول الأجنبية بصورة عامة. وكانت هذه الصّلات تقوم على أساس اقتصادي هو تبادل البضائع والمنتجات، وكانت واردات الكوفة في الحقيقة تفوق صادراتها، وذلك أنّ الكوفيين لم يزاولوا أي مهنة كانت لانشغالهم بالحروب. وكانوا بطبيعتهم رجالاً محاربين بعيدين كل البعد عن معرفة أي صناعة غير صناعة الحرب فكانوا يعمدون إلى جلب حاجاتهم من الخارج بطريق الشراء أو المبادلة. كما أنّ حياة الرّخاء والتّرف الّتي تمتع بها سكان الكوفة وزيادة عدد السّكان أدى إلى استيراد الكثير من البضائع الكمالية من الأقطار المجاورة.

أما صادراتها فكانت تعتمد على المنتجات المحلية (كمناديل الخز الكوفية والوشى ودهن البنفسج وأنواع من الفاكهة والتمور)[٦].

أما واردات الكوفة فكانت تأتي من مصدرين، أولهما البلاد العربية الإسلامية وثانيهما البلاد الأجنبية. أما من البلاد العربية فكان يستورد من (البصرة): التّمور والخز وماء الورد والحناء، وثياب الكّتان الرقيقة[٧].

(١) الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٤١٢.
(٢) الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٤١٢.
(٣) الأصفهاني: الأغاني ج١٧ ص١٠٨.
(٤) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.
(٥) ابن سعد: الطبقات الكبير ج٧ قسم٢ ص٦٥.
(٦) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢، المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٢٨.
(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٢٨، يوسف غنيمة: تجارة العراق قديماً ص٥٣.

ومن (الموصل): السّتور والمسوح وقماش الموسلين[٨] والحنطة والشعير والعسل والجبن والسّماق وحب الرّمان، والقير والحديد، والسّكاكين والنّشاب والسّلاسل[٩] والملح[١٠].

ومن (واسط) البسط والستور والحصر[١١].

ومن (الجزيرة العربية) الخيل الأصيلة والأديم[١٢] والنّجائب[١٣].

ومن (ميسان)[١٤] السّتائر والوسائد والأنماط[١٥] والجرار المذارية[١٦].

ومن (الرّقة) الزّيت والصّابون الجيد، والزّيتون والأقلام[١٧].

ومن (حلوان) الرّمان والتّين[١٨] والكامخ.

ومن (حران) الموازين والعسل والقطن[١٩].

ومن (الجزيرة الفراتية) الجوز واللّوز والسّمن والخيل والجياد[٢٠].

ومن (نصيبين) الموازين، وحجر الزّجاج والفواكه والبلوط[٢١].

ومن (الشّام) المنسوجات الحريرية والقطن والمنسوجات القطنية[٢٢]،وزيت الزّيتون والسّكر والفواكه (من تفاح وزيتون وتين) والزّجاج والأدوات الزّجاجية، وكان العرب يستوردون من الشّام السّيوف الدّمشقية والمشرفية[٢٣].

ومن (اليمن) البرود والحلل اليمانية والثّياب السّعيدية والحلل

(٨) المسوح: ج مسح: كاء مخطط يعمل منه البيت كما يستتر به ويفترش، والموسلين نوع من القماش يصنع في الموصل وسمي بذلك نسبةً إلى الموصل ولازال يسمى بهذا الاسم حتّى اليّوم.
(٩) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٤٥، يوسف غنيمة: تجارة العراق قديمة ص٥٢.
(١٠) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٣٣.
(١١) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٢٩.
(١٢) الأديم: وهو الجلد المدبوغ عليه شعره أو صوفه أو وبره.
(١٣) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٣٥.
(١٤) مدينة تقع بين البصرة وواسط.
(١٥) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٢٢.
(١٦) نوع من الجرار اشتهر بأنّه يرشح الماء، والمذار الّتي تنسب إليها هذه الجرار وهي قصبة ((ميسان)) بين واسط والبصرة وبينها وبين البصرة أربعة أيّام وكانت معروفة بجرارها، ياقوت: معجم البلدان، جـ٧ ص٤٣٣.
(١٧) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٤١، ١٤٥.
(١٨) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٣٤، الكافح: من المخللات تشتهي الطّعام: الجاحظ، البيان والتّبين جـ٣ ص١٩١.
(١٩) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٤٥.
(٢٠) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٤٥.
(٢١) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٣٢.
(٢٢) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٨٠، ١٨١، الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص١٠، ابن خوداذبه: المسالك والممالك ص١٥٣.
(٢٣) ابن منصور: لسان العرب جـ٧ ص٧٥، نسبة إلى المشارف وهي قرى من أرض العرب، الثّعالبي، فقه اللّغة ص١٨.

النّجرانية[1] والعدنية والأديم والزّعفران، والورس والخضاب[2] والبخور والدّروع والسّيوف اليمانية، والبغال والحمير[3].

ومن (عمان) اللّؤلؤ[4].

ومن (مصر) النّسيج القطني والثّياب من مختلف الأنواع والمنسوجات الصّيفية والكتانية والبغال والحمير ودهن البلسان.

ومن (المغرب) اللّبود وثياب الصّوف، والفرو، والرّقيق والجوارب والسّيوف، والبزاة السّود[5].

ومن (الأندلس) أجود أنواع النّحاس والزّئبق، والجواري والأقمشة القطنية والصّوفية[6].

أمّا واردات الكوفة من البلاد الأجنبية فكان يرد إليها:

من (الهند) التّوابل، والكافور، والعطور الهندي، والقرنفل، وجوز الهند، والرّماح، والقطيفة، والأبنوس، والياقوت، والماس، وجلود النّمور، والفيلة[7]، والسّيوف القلعية[8].

ومن (الصّين) الحرير، والثّياب الحريرية، والدّيباج والغضائر، والجواري والعقاقير، والمسك، وأواني الفضة والذّهب، والمداد والكاغد والسّروج، والطّواويس[9].

ومن (التّبت) أجود أنواع المسك وأعطرها[10] رائحة.

ومن (فارس) ثياب الكتان والسّابري والجوامع والأقفال والمرايا والسّيوف والدّروع والطّين السيرافي ودهن النّيلوفر ودهن الياسمين وماء الورد[11].

ومن (مرو) الجياد والطّنافس المروية والثّياب المروزية[12].

(١) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٢٧، الحلل النّجرانية: كانت تدفع جزءاً من الجزية للمسلمين، محمّد أحمد الله: الوثائق السّاسية ص١٠٣.

(٢) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢، ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص١٧.

(٣) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٣٢.

(٤) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٢٢، ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢.

(٥) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢، المقدسي: أحسن التّقاسيم ص٢٣٩، ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص١٥٣.

(٦) ابن الفقيه: البلدان، ص٢٥٢، المقدسي: أحسن التّقاسيم ص٢٢٩.

(٧) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٢٩، ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص٧٠، ٧١، اليعقوبي: البلدان ص٢٥١.

(٨) ياقوت: معجم البلدان جـ٧ ص١٤٨، جاء ذكر هذه السّيوف في كتاب أبي دلف مسعر بن مهلهل فيما ينقل عنه ياقوت قال: ثمّ رجعت من الصّين إلى: كلّه: وهي أوّل بلاد الهند من جهة الصّين وإليها تنتهي المراكب، ثمّ لا تتجاوزها وفيها قلعة عظيمة فيها معدن الرّصاص القلعي لا يكون إلاّ في قلعتها وفي هذه القلعة تضرب السّيوف القلعية وهي الهندية العتيقة.

(٩) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٢٧، ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص٦٩، ٧٠، ابن الفقيه: البلدان ص٢٥١.

(١٠) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥١.

(١١) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٣٢، ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٤.

(١٢) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص٢٩، ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٤.

٤-المعاملات المالية والتّجارية

أ- الصّيرفة

ب- البنوك

ج- السّفاتج

د- الصّكوك

هـ- القروض

و- الحوالات

ز- النّقود

٤-المعاملات المالية والتّجارية

(أ) الصّيرفة:

رأينا كيف اتسع نطاق المعاملات التّجارية في الكوفة، وكيف أنّ التّجار تعاملوا مع أصقاع بعيدة وأقطار نائية، ولمّا كان من الصّعوبة بمكان نقل المال اللازم لشراء البضائع أو تداول العملة لاختلافها بين الأقطار المختلفة، فكان لابدّ أن يظهر من يقوم بتسيير هذه العمليات لقاء مبلغ معين يؤخذ من التّجار على سبيل العمولة، وقد أطلق على الأشخاص الّذين اشتغلوا بتبديل العملات اسم الصّيارفة، وعلى العملية نفسها اسم الصّيرفة.

ولمّا بنيت مدينة الكوفة نقل أهل الذّمة نشاطهم إليها وكونوا سوقاً خاصة للصّيرفة، كما انتقل إليها مسيحيون من الحيرة كانوا يزاولون مهنة الصّيرفة[13]، وسيطروا عليها، وقد نزح إلى الكوفة أيضاً صيارفة من مسيحيي نجران في اليمن[14]، حتّى صار معظم الصّيارفة في الكوفة من المسيحيين[15].

وقد أتقنت الكوفة عمل الصّيرفة ونظمته بشكل يشابه (بنوك اليوم)، وكانت عملية الصّيرفة هذه تدر ربحاً طائلاً لتوسع التّجارة وازدهارها وتكون الثّروات الطّائلة عند الأفراد الّذين كانوا يستخدمون أموالهم في الصّيرفة[16]، فضلاً عن الأرباح الضّخمة المتكونة من الفائض أو الرّبا كما أنّ الصّيرفة والصّيارفة لعبوا دوراً هاماً في سياسة المدينة فكانت تمول المؤامرات والفتن الدّاخلية وتنفق عليها مبالغ طائلة، وكانوا يجمعون الأموال لتمويل المؤمرات[17] والدّعاية لها ومن هنا تعهد الصّيرفي ابن مقرن للمنصور سنة (١٤٥) هـ بأن يعمل على إقرار الأمن والطّمأنينة في الكوفة[18].

(١٣) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٤.

(١٤) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٤.

(١٥) الجاحظ: ثلاث رسائل ص١٧.

(١٦) المبرد: الكامل جـ١ ص٣١٠.

(١٧) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.

(١٨) البراقي: تاريخ الكوفة ص١٤٦.

واشتغل صيارفة الكوفة بتحويل الدّنانير إلى دراهم وبالعكس وكان لهم فضل كبير في تقدم فن الصّيرفة في العراق[١] بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة، فقد تعلم يهود بغداد فن الصّيرفة عن صيارفة الكوفة وأتقنوه.

ولم يقتصر فن الصّيرفة على مسيحيي المدائن والحيرة ويهود بغداد وإنّما تعداها إلى المسلمين حيث ظهر منهم عدد قليل من الصّيارفة وكان هؤلاء على اتصال دائم بنصارى نجران الّذين نزحوا من اليمن[٢].

كانت حوانيت الصّيارفة في الكوفة تقع في مسجد بني جذيمة[٣]، ولمّا كان الإسلام قد حرم الرّبا فإنّ الصّيارفة المسلمين كانوا يمزجون أعمال الصّيرفة بالتّجارة، وكانوا يبيعون المدينين بضائع بسعر أعلى بكثير من سعر السّوق ويكون الدّفع مؤجلاً والفرق بين سعر السّوق وسعر البيع هو الفائدة المستحقة عن ثمن البضاعة عن المدة الّتي أجل فيها الدّفع ويسمى هذا النّظام بالعينة أو الورق[٤].

كانت تأتي أموال الصّرافين هذه من (الودائع) الّتي يودعها النّاس عندهم كما أنّ عملية الإقراض كانت تجلب لهم أرباحاً كبيرة لكثرة الفائض الّذي يأخذونه عند تسليفهم النّاس من هذه الودائع.

والخلاصة أنّ عملية الصّيرفة هذه قامت بدور مهم في حياة الكوفة الاقتصادية والاجتماعية إذ اشتغل هؤلاء الصّيارفة بالتّسليف والقروض، كما أنّهم كانوا يتوسطون بين النّاس ودار الضّرب، ويقبلون الودائع ثمّ يقومون بصرف النّقود وتبديلها.

(ب) البنوك:

لم تكن البنوك في الكوفة بالمعنى المفهوم اليوم وإنّما كان أغلبها محلات أو حوانيت خاصة يمتلكها أفراد يتوفر لديهم المال اللازم، وكان هؤلاء الأفراد الّذين أنشؤوا هذه البنوك، أمّا تجاراً أخذوا يشتغلون بالصّيرفة أو صيارفة يشتغلون بصرف النّقود ثمّ وسعوا معاملاتهم إلى قبول الودائع وتسليف النّقود.

وقد قام أصحاب البنوك بخدمات كثيرة فكانوا يسلفون الأموال للتّجار ويستلمون منهم الودائع ويقرضون النّقود، وقد كان لهذه البنوك الشّخصية فروع في بعض الأماكن على اتصال بالمركز[٥].

(١) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.
(٢) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٤.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٤.
(٤) صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٦٠.
(٥) صالح أمل: التّنظيمات الاجتماعية في البصرة ص٢٦٥.

وقد قامت هذه البنوك بدور كبير في عالم التّجارة والاقتصاد وساعدت على استعمال السّفاتج والصّكوك والحوالات والقروض وغيرها.

(ج) السّفتجة:

هي أن تعطي مالاً لرجل فيعطيك خطاً يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر، وهي كلمة (فارسية).

وظهر استخدام السّفاتج في معاملات الكوفيين التّجارية في فجر تاريخها ذكر السّرخي «أنّ ابن الزّبير كان يأخذ بمكة الورق من التّجار فيكتب لهم إلى البصرة وإلى الكوفة فيأخذون أجود من ورقهم» وكذلك كان ابن عباس يأخذ الورق بمكة على أن يكتب لهم إلى الكوفة بها[٦].

وكانت السّفاتج وسيلة هينة لتسوية المعاملات بين مختلف المدن والأقطار وكان التّجار يستخدمونها لتصفية حساباتهم بين مختلف الأقطار[٧] وكانت السّفاتج محدودة الانتشار في القرنين الأوّل والثّاني وظلت محصورة في الاستعمالات الشّخصية طيلة هذه الفترة، وما إن جاء القرنان الثّالث والرّابع الهجري حتّى شاع استعمالها بشكل واسع وتعددت أغراضها.

(د) الصّكوك:

وهي وسيلة أخرى من وسائل المعاملات التّجارية والصّك أمر خطي بأن يدفع مقدار من النّقود (أو العطاء أو الرّزق) إلى الشّخص الوارد اسمه فيه، قال البلاذري: «كان على سعيد بن العاص ديون تبلغ تسعين ألف دينار مسجلة عند غرمائه بالصّكوك»[٨].

وقد شاع استعمال الصّك في صدر الإسلام فكانت الأرزاق والرّواتب تدفع «أحياناً كثيرة بالصّكوك وقيل أنّ عمر ابن الخطاب كان أوّل من صك وختم أسفل الصّك»[٩].

وجاء في العقد الفريد أنّ الحجاج قال ليزيد بن مسلم بعد أن منع عطاء أحد الأفراد وحبس اسمه، أفكك لهذا عن اسمه واصكك له بعطائه[١٠].

وكانت الصّكوك أيضاً تقوم مقام النّقود في كثير من الحالات «اشترى يزيد بن المهلب مؤناً وكتب صكاً للبائع بالثّمن»[١١].

(٦) السّرخسي: المبسوط جـ١٤ ص٣٧، صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٦٤.
(٧) الزّبيدي: تاج العروس ١ ص٥٩.
(٨) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٤ قسم ٢ ص١٣٢.
(٩) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي جـ١ ص١٣٢.
(١٠) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ١ ص٣٦.
(١١) وكيع: أخبار القضاة ج١ ص٣٤٣.

وكانت الصّكوك تكتب وتصرف بنفس المدينة، وكانت أحياناً على بيت[1] المال أو على الصّرافين والجهابذة[2].

وكلمة صك كانت تطلق أحياناً على (سند الدّين) وقد جرت العادة أن يوقع الصّك شاهدان[3] ثمّ يختم في أسفله.

لقد كوتب محمّد بن سيرين على عشرة آلاف درهم وعشر وصائف في صك لقاء عتقه[4].

كما أنّ صاحب الأغاني أشار إلى الصّكوك الّتي تقوم مقام (سند الدّين) فقال: «إنّه إذا كان السّلطان بالمدينة إذا جاء مال الصّدقة، أدان من أراد من قريش منه وكتب بذلك صكوكاً عليه»[5] فيستعبدهم به ويختلفون إليه ويداورونه فإذا غضب على أحد منهم استخرج ذلك منه حتّى كان هارون الرّشيد فكلمه عبد الله بن مصعب في صكوك بقيت في ذلك على غير واحد من قريش فأمر بها فحرقت عنهم فذلك قول جعفر بن الزّبير:

فما كنت ديناً فقد دنت إذ بدت
صكوك أمير المؤمنين تدور[6]

هذا وأنّ بعض الصّكوك تعطى ولم يكن لها موعد معين لدفعها فقد كتب سعيد بن العاص صكاً على نفسه لشخص بمقدار عشرين ألف درهم بشهادته وشهادة مولى له وقال سعيد لهذا الشّخص: «إنّك لن تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا فإذا جاءنا شيء فأتنا»[7].

وقد ذكر ابن حوقل فقال: «إنّي رأيت صكاً كتب بدين على محمّد بن أبي سعدون بادرغشت (مراكش) وشهد عليه العدول بإثنين وأربعين ألف دينار[8].

ولم يقتصر أمر الصّكوك على المال فقط وإنّما تعداها إلى أبعد من ذلك فقد كانت الأرزاق توزع على النّاس بالصّكوك في بعض المدن وذلك بأن يعطى الأهالي صكوكاً يأخذون بموجبها الأرزاق من دار الرّزق كما كان الحال في الحجاز[9]، وقد قامت الصّكوك مقام سندات التّملك للضياع والأملاك، وكان ابن المقفع في الكوفة فاعجب بجارية ولم يكن عنده دراهم فبعث رجلاً فجاءه بصك ضيعته، وقال هذه عهدة ضيعتي خذيها[10]، كما استعملت الصّكوك لدفع رواتب المقاتلة والجند.

(١) مسكويه: تجارب الأمم، ج٣ ص٤٦١.
(٢) الجهبذ: ج، جهابذة: الفاقد الّذي يميز الجيد من الرديء.
(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج١ ص٣٢٥.
(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة ج٧ قسم١ ص٧٨.
(٥) الأصفهاني: الأغاني ج١٣ ص١٠١.
(٦) الأصفهاني: الأغاني ج١٣ ص١٠١.
(٧) الأصفهاني: الأغاني ج١ ص١٦.
(٨) ابن حوقل: المسالك والممالك ص٤٢.
(٩) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٧٧.
(١٠) الأصفهاني: الأغاني ج١٣ ص١٠٦.

(هـ) القروض:

لقد كان الصّيارفة يعطون قروضاً أو سلفاً للأشخاص المحتاجين لقاء ربح معين وكانت هذه العملية تجلب لهم أرباحاً كبيرة لكثرة الفائض الّذي يأخذونه وهناك أمثلة واضحة على مقدار هذه القروض فقد أقرض أبو دكين في الكوفة (مولى مراد) عشيرته «سبعمائة ألف[11] درهم».

(و) الحوالات:

وذلك بأن يودع التّاجر أو الشّخص الّذي لديه المال أو النّفائس عند صراف ويأخذ وصلاً بها، وعندما يشتري هذا التّاجر حاجة، أو بضاعة يعطى حوالة على الصّراف، ويقوم هذا الصّراف بصرفها، هذه الودائع كانت من أهم مصادر أموال الصّرافين والبنوك فقد أودع أبو علي الخازن خمسين ألف دينار مع صراف[12]، وجعلت هذه الحوالات المعاملات التّجارية منظمة وسريعة، كانت هذه البنوك ذات نفع عظيم فقد سهلت عملية التّبادل التّجاري بين الأمصار والأقاليم النّائية وقللت من مشاكل نقل النّقود بين الأمصار وتعريضها للأخطار والسّلب بالإضافة إلى مصاريف النّقل المالية.

(جـ) النّقود:

لم يكن للعرب عملة خاصة بهم فكانوا يتعاملون بالنّقود الفارسية والبيزنطية وغيرها كالدّراهم الفضية الفارسية وتسمى الورق، والدّنانير الذّهبية البيزنطية[13] تسمى (العين) فلما جاء الإسلام أقر الرّسول(ص) النّقود على ما كانت عليه وتعامل الرّسول نفسه بهذه النّقود، ولما تولى أبو بكر الخلافة أقر تداولها بين النّاس ولم يغير منها شيئاً.

وقد كثر استعمال عدة أنواع من الدّراهم في ذلك العصر هي:

١- الدّرهم البغلي[14]، ويزن ٣٠ قيراطاً= ٨دوانيق= ٤،٦٦غرام[15].

٢- الدّرهم الطّبري[16]، ويزن ١٠قراريط= ٤دوانيق= ٢،٨٣غرام[17].

(١١) السكري: المحبر ص٣٤٢.
(١٢) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص١٨٨.
(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٢، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٨.
(١٤) الدّراهم البغلية: نسبة إلى ((بغل)) وهو اسم رجل يهودي ضرب تلك الدّراهم وكان يعرف (برأس البغل)، الكرملي: النّقود العربية ص٢٢.
(١٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٨، المقريزي: شذور العقود ص٢، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢١٠.
(١٦) الدّرهم الطّبري: من الدّراهم المضروبة في طبرستان، وقيل الدّراهم المضروبة في طبريا في الأردن، الكرملي النّقود العربية ص٢٤.
(١٧) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٢، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٨، المقريزي: شذور العقود ص٢، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢١٠.

٣- الدّرهم الجوارقي[١]، ويزن ١٢قيراطاً= ٥،٤دوانيق= ٣،٤٠غرام[٢].

٤- الدّرهم الوافي.

٥- الدّراهم السّميرية[٣]:

إنّ هذه النّقود – السّاسانية والبيزنطية- لم تبقَ على حالها، فقد طرأت عليها تغيرات تدريجية فظهرت (الدّراهم والدّنانير) وعليها كتابات عربية وكان الخليفة عمر أوّل من ضرب هذه العملة في سنة ١٨هـ- ٦٣٨م على وزن (١٤)[٤] قيراطاً على نقش الكسروية وشكلها وأعيانها (صورها) ولكنه زاد عليها كتابات عربية مثل (الحمد لله) وفي بعضها الآخر (محمّد رسول الله) وأضيف إلى البعض الآخر (لا إله إلا هو) وعلى جزء منها أضيف اسم (عمر)[٥] ولما بويع عثمان بن عفان ضرب في خلافته دراهم ونقش عليها عبارة التّكبير (الله أكبر)، وقد شاع في الكوفة في عهد عمر بن الخطاب تزييف العملة الإسلامية، فكان الفرس قد غشوا هذه العملة فسميت (الزّيوف) وقد أمر عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال في الكوفة أن يكسر هذه الزّيوف ويحولها إلى فضة[٦].

كان الضّرب عادة من اختصاص الحكومة المركزية فكانت النّقود تضرب في الحجاز ثمّ تحمل إلى بقية الولايات وظلّت على هذا الوضع حتّى اتسعت رقعة الدّولة الإسلامية وترامت أطرافها فسمح للولاة بضرب النّقود في مراكز ولاياتهم ولما انتهت سنة ٢٤هـ صار لكل ولاية تقريباً دارٌ للضرب في عاصمتها.

وفي العهد الأموي الأوّل لم يحدث تغير هام في النّقود، ففي سنة ٦١هـ ضرب معاوية دنانير عليها صورته متقلداً سيفاً[٧] وضرب دراهم الواحد منها يساوي ستة دوانيق[٨] سميت بالنّاقصة لأنّها تنقص (حبة أو حبتين).

كما ضرب زياد بن أبية عامل معاوية على العراق (الكوفة والبصرة) دراهم وزن العشرة منها تساوي ستة مثاقيل[٩] وقيل تساوي سبعة مثاقيل[١٠].

وعندما جاء مصعب والياً لأخيه على العراق سنة ٧٠هـ ضرب نقوداً مشابه لنقود الأكاسرة وعليها (بركة) في جانب و(الله) في الجانب الآخر[١١] وجعل كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وظلّت هذه الدّراهم تستعمل حتّى جمعها الحجاج بن يوسف وكسرها ثمّ أذابها، كما أنّ مصعب بن الزّبير ضرب الدنانير بجانب الدّراهم الّتي ضربها، وظلّت هذه النّقود تتداول بين النّاس إلى أن تولى عبد الملك بن مروان فعرب النّقد في سنة (٧٤-٧٥هـ) فضرب نقوداً جديدة وجعلها إسلامية بحتة وكتب عليها كتابات إسلامية مثل (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) و (محمّد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله) وسورة الإخلاص (الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد) وكتب عليها تاريخ الضّرب (بسم الله ضرب هذا الدّينار سنة خمس وسبعين)، ولكنه حافظ على الوزن السّابق للدينار الّذي كان وزنه (مثقالاً واحداً) فأبقاه كما هو، وقسمه إلى عشرين وحدة متساوية بعد أن كان اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة وهو وزن الدّينار السّابق وبنفس الوقت استمرت نسبة العشرة دراهم إلى سبعة مثاقيل دون تغير[١٢].

وعمل عبد الملك موازين معينة من الزّجاج لوزن النّقود الذّهبية والفضية لمنع الغش والتّلاعب وسميت هذه الموازين (صنجات الوزن)[١٣].

وقد أرسل عبد الملك بن مروان بنموذج من السّكة، وهي حديدة منقوشة عليها النّقود[١٤] إلى الحجاج بن يوسف عاملة على العراق (الكوفة والبصرة) وأمره بنشر هذه العملة ومنع تداول العملة السّابقة ولو بالقوة وأمر النّاس بجلب الدّراهم القديمة إلى دار الضّرب لطبعها من جديد[١٥]، وتحويلها إلى السّكك الإسلامية[١٦].

كما طلب عبد الملك من الحجاج أن يضرب الدّراهم على خمسة عشر قيراطاً[١٧] وقد ضرب هذا النّوع من النّقود في العراق سنة ٧٦هـ وطبعت على هذه النّقود الجديدة أسماء الولاة والبسملة باللغة العربية، وكانت هذه النّقود غير مرغوب فيها عند النّاس، وقد أثارت نقد الفقهاء.

وأشار البلاذري إلى أسباب هذه الكراهية فقال: «إنّ

(١) الدّراهم الجوارقية: نسبة إلى جورقان (بالضّم) قرية بنواحي همدان، الكرملي النّقود العربية ص٢٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٢، الماوردي الأحكام السّلطانية ص٢٦٨، المقريزي: شذور العقود ص٢، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢١٠.

(٣) الدّراهم السّميرية: نسبة إلى رجل يهودي اسمه (سمير) ضرب هذه الدّراهم.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٠، الكرملي: النّقود العربية ص٩.

(٥) المقريزي: شذور العقود ص٢، جرجي زيدان: تاريخ التّمدن الإسلامي ج١ ص١٢٠.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥١.

(٧) الكرملي: النّقود العربية ص٣٣، النّقشبندي: الدّينار الإسلامي ص١٧.

(٨) المقريزي: شذور العقود ص٤، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢١١.

(٩) المقريزي: شذور العقود ص٤، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢١١.

(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٢.

(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٩.

(١٢) المقريزي: شذور العقود ص٤- ٦.

(١٣) الدّميري: حياة الحيوان ص٧٨، ٧١، النّقشبندي: الدّينار الإسلامي ج١ ص١٥، زكي حسن: فنون الإسلام ص٥٨٥.

(١٤) الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٧٩.

(١٥) المقريزي: شذور العقود ص٥، النّقشبندي: الدّينار الإسلامي ص١٥.

(١٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤.

(١٧) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٩.

الحجاج ضرب دراهم بغلية كتب عليها (بسم الله)، (الحجاج)، ثمّ كتب عليها بعد سنة، (الله أحد الله الصّمد) فكره الفقهاء مسها على غير طهارة فسميت مكروهة[1].

وقد سار خلفاء بني أمية في أثر الخليفة عبد الملك بن مروان في ضرب النّقود إلا أنّهم تشددوا في صحة العيار وتخليص الفضة من الشّوائب والزّيوف، فلما ولى عمر بن هبيرة الكوفة ليزيد بن عبد الملك (يزيد الثّاني سنة ١٠١-١٠٥هـ) ضرب دراهم كانت أجود بكثير مما ضربها الحجاج فخلص الفضة من الشّوائب واشتد في تبديل العملة كما شدد على من يضربونها وكانت دراهمه هذه تدعى «الهبيرية»[2] وكان الدرهم الهبيري يزن (ستة دوانيق)[3].

وعندما ولي خالد بن عبد الله القسري الكوفة لهشام بن عبد الملك سنة (١٠٦- ١٢٠هـ) اشتد في تخليص الفضة من الشّوائب واشتد في أمر النّقود أكثر من شدة ابن هبيرة حتّى استطاع أخيراً أن يحكم أمرها[4]، وكان الدّرهم الخالدي يزن (سبعة دوانيق) كما أنّ حجمه أكبر من حجم الدّراهم الهبيرية، وسميت الدّراهم الخالدية[5].

ولما تولى يوسف بن عمر الثّقفي سنة (١٣٠- ١٣٦هـ) بعد خالد أفرط في الشّدة إفراطاً كبيراً وذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أسلافه في تخليص العملة والدّقة في العيار[6] وصغر حجمها وجعلها على وزن ستة وضرب هذه السّكة في مدينة واسط[7].

وقد غالى يوسف غلواً شديداً في مراقبة الطّباعين وأصحاب العيار فحبس وقطع الأيدي وانتزع الجلود[8] وغيرها من الإجراءات القاسية في سبيل السّيطرة على شؤون العملة.

هذا وكانت الدّراهم الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود أنواع الدّراهم لبني أمية، حتّى أنّ الخليفة المنصور لم يكن يقبل في جباية الخراج غير هذه الدّراهم[9].

لقد كانت الدّولة تمتلك دور ضرب النّقود وأنّ دار الضّرب هذه كانت في البداية صغيرة محدودة الانتشار يقتصر عملها على إعادة سك النّقود الممسوحة ولكن الحجاج وسع دار الضّرب في الكوفة ليتمكن من إعادة سك النّقود القديمة على العيار الجديد الّذي قرره لها وقد جلب الحجاج لدار الضّرب هذه الطّباعين من الأقاليم الأخرى[10]، وفرض عليهم رقابة شديدة ليضمن صحة العيار وصفاء المعدن المستخدم في المسكوكات حتّى إنّه ختم على أيديهم[11].

وفي دار الضّرب هذه كانت تضرب الدّراهم للخليفة مما يجتمع له من ذهب وفضة ويضرب أيضاً خلاصة النّقود المزيفة[12] والمستوقة[13] والبهرجة[14]، كما أنّه أذن للتجار من النّاس أن يضرب لهم الأوراق (الدّنانير والدّراهم[15] لقاء أجور زهيدة جداً تسمى ثمن الحطب أو بنسبة أجرة الضّرب[16]، فكان يؤخذ درهم واحد عن كل مئة درهم أي معنى هذا ١٪ وربما اختلفت هذه الضّريبة باختلاف المدن[17].

لقد راقب ولاة الكوفة ولاسيما في العهد الأموي تداول العملة بين النّاس، وقد عهدوا إلى المحتسب بالتّفتيش ومراقبة الدّراهم والدّنانير لمنع الغش والتّلاعب والتّزوير، وقد أشار الكرملي إلى رجل كان يجلس في السّوق يسمى (النّاقد) وكان واجبه تمييز الدّراهم وفحصها حتّى يعرف جيدها من رديئها ويضمن تمام وزنها[18].

وقد فرضت الحكومات عقوبات شديدة لمنع ضرب النّقود خارج دور الضّرب الحكومية وعدته عملاً إجرامياً يستحق مرتكبوه أقصى العقوبات، وأشار البلاذري إلى «أنّ مروان بن الحكم أخذ رجلاً يقطع الدّراهم فقطع يده»[19] وعبد الملك بن مروان أخذ رجلاً يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده ثمّ ترك ذلك وعاقبه وقيل أنّ عمر بن عبد العزيز أتى برجل يضرب على غير سكة السّلطان فعاقبه وسجنه، وأخذ حديده وطرحه في النّار[20].

---

(١) الكرملي: النّقود العربية ص٤٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٧٦٩، الكرملي: النّقود العربية ص٤٣.

(٣) المقريزي: شذور العقود ص٤٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٩.

(٥) الكرملي: النّقود العربية ص٤٥.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٩.

(٧) البراقي: تاريخ الكوفة ص٢٥٤، الكرملي: النّقودج العربية ص٤٥.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٦٩، المقريزي: شذور العقود ص٧، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢١٤.

(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤.

(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤.

(١٢) المزيفة (الزّيوف): الدّراهم الّتي خلط بها نحاس وطلى بها، الكرملي: النّقود العربية ص٥٠، النّقشبندي: الدّينار الإسلامي ج١ ص١٤.

(١٣) السّتوق: الدّراهم الّتي غلب عليها الغش، الكرملي: النّقود العربية ص٥٠.

(١٤) البهرجة: الدّراهم المزيفة الّتي يردها التّجار، الكرملي: النّقود العربية ص٥٠.

(١٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، النّقشبندي: الدّينار الإسلامي ج١ ص١٦.

(١٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٤، المقريزي: شذور العقود ص٥، النّقشبندي: الدّينار الإسلامي ج١ ص١٦، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٣٣.

(١٧) جرجي زيدان: التّمدن الإسلامي ج١ ص١٤٥، الكرملي: النّقود العربية ص٣٦، النّقشبندي: الدّينار الإسلامي ج١ ص١٦.

(١٨) الكرملي: النّقود العربية ص١٢.

(١٩) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٦، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٧٠.

(٢٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٥.

أمّا طريقة ضرب النّقود فكانت تتم بتنقية الذّهب والفضة بالمسبك عدة مرات ثمّ يقسمون الذّهب والفضة إلى أجزاء ذات وزن معين حسب الوزن الشّرعي أو وزن الإمام ويكون في الذّهب ٧٢حبة من الشّعير وفي الفضة ٥٠ حبة وخمساً[١]، وتطرق لتكون دائرية، ثمّ يضعون الطّابع (السّكة) فوق تلك القطعة ويضربون عليها بمطرقة حتّى تتأثر بالنّقش وتظهر عليها الكتابة وتسمى هذه الحديدة بالسّكة[٢]، وقد وصف ابن خلدون[٣] السّكة وقال: «وهي الختم على الدّنانير والدّراهم المتعامل بها بين النّاس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدّينار أو الدّرهم فتخرج رسوم تلك النّقوش عليها ظاهرة مستقيمة»، ولفظ السّكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثمّ صارت تعني النّقوش الماثلة على الدّينار والدّرهم، ثمّ صارت تعني النّظر في استيفاء حاجاتها وشروطها وهي الوظيفة[٤].

وقد أشار الجاحظ إلى أنّه كانت تضرب النّقود عادة في الكوفة في عيد النّيروز وهو أوّل أيّام السّنة الفارسية[٥].

الفصل الثّالث
الصّنّاعات في الكوفة

تمهيد:

الصّنّاعات الرّئيسية في الكوفة

(أ) صناعة النّسيج

(ب) صناعة الحدادة

(جـ) صناعة النّجارة

(د) صناعة الخزف والفخار

(هـ) صناعة الدّهون

(و) صناعة الصّباغة

(ز) صناعة الصّابون

(ح) صناعة النّبيذ

(ط) العمال والحرفيون

تمهيد:

لم تكن الصّنّاعة في العصور الإسلامية الأولى صناعة بالمعنى المفهوم اليوم وإنّما كانت صناعة بسيطة ساذجة لسد حاجة السّكان الاستهلاكية المحلية والاكتفاء الذّاتي.

ولكن هذه الصّناعة البسيطة تطورت بمرور الزّمن بالنّسبة لحاجة المجتمع المتطور حتّى وصلت إلى أوجها في العراق في القرن الرّابع الهجري، ومع ذلك فإنّ المصادر التّاريخية لا تعطينا معلومات كافية عن تطور هذه الصّنّاعة ونموها والمراحل الّتي مرّت بها في مدينة الكوفة اللهم إلا بعض الشّذرات الصّغيرة المبعثرة في بطون الكتب.

والعرب عندما جاؤوا من الجزيرة العربية إلى الكوفة نقلوا معهم بعض الخبرات السّابقة البسيطة عن بعض المراكز الحضارية في أطراف بلاد العرب ولاسيما في اليمن إلى هذا المصر الجديد، وقد التقت الخبرة العربية الإسلامية مع خبرة صناع الحيرة «الّذين ورثوا الحضارة السّاسانية» والّذين وفدوا إليها بعد نشأتها، ولاسيما النّصارى حيث برعوا في الصّناعة براعة فائقة[٦].

وقد استفاد هؤلاء الصّنّاع من تسامح العرب واعترافهم بمهارتهم الفنية واعتمدوا عليهم أوّل الأمر.

ولذلك فإنّ الحرف والصّنّاعات الفنية ظلّت بعد الفتوحات الإسلامية فترة طويلة من الزّمن في أيدي أهل البلاد المفتوحة، ولقد تتلمذ الصّنّاع العرب على أرباب الصّنّاعات الفنية في تلك البلاد مسلمين وغير مسلمين مستهدفين الاختلاط بين سكان تلك البلاد المختلفة وانتقال الفنيين الصّنّاع إلى ديار الإسلام[٧] وكانت هذه الأساليب الفنية المحلية تتطور في كل إقليم تطوراً لا تفقد فيه كل صلتها بماضيها ولكنها تخضع للتنظيم المحلي الّذي يتطلبه العهد الجديد[٨].

وعلى هذا فقد ورث المسلمون في الفنون الصّناعية خير ما حذقته الأمم الّتي خضعت لسلطانهم أو الشّعوب الّتي اعتنقت الإسلام، وصار إلى الفنانين المسلمين ما عرفه السّاسانيون من أسرار صناعة النّسيج الفاخر والتّحف الفضية والذّهبية وما اشتهر عند القبائل الرّحل من أساليب نسج السّجاد وما أتقنته الشّعوب التّركية في آسيا الوسطى من صناعة التّحف وما نبغ فيه أهل الشّام من صناعة الزّجاج والخزف وغيرها.

(أ) صناعة النّسيج:

لما انتشر الإسلام وانقضى دور الزّهد والتّقشف الّذي ساد العالم الإسلامي في بداية تاريخه بسبب كراهية التّرف والملابس الحريرية لقيت صناعة النّسيج تشجيعاً كبيراً في

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص٨١١- ٨١٢.
(٢) جرجي زيدان: التّمدن الإسلامي ج١ ص١٢٦.
(٣) المقدمة: ج٢ ص٨٠٨- ٨٢٩.
(٤) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص٨٢٩.
(٥) الجاحظ: التّاج ص١٤٦.
(٦) الجاحظ: ثلاث رسائل ص١٨.
(٧) زكي حسن: أطلس الفنون الزّخرفية والتّصاوير الإسلامية ص٣١.
(٨) زكي حسن: نفس المصدر: ص١- ٢.

الأقطار الإسلامية المختلفة ولاسيما بعد أن انتشرت عادة الخلفاء والأمراء في مكافأة رجال الدّولة بالملابس الثّمينة والخلع الفاخرة[١].

هذا وأنّ صناعة النّسيج من أهم الصّناعات الّتي ظهرت في الكوفة في القرن الأوّل الهجري، كما أنّها تعتبر من أقدم الصّناعات اليدوية وكانت حوانيت النّسيج هي الصّفة الغالبة على المدينة في تلك العصور[٢]، وأنّ الحياة هنا جعلت العناية بالملابس أمراً ضرورياً، فقد رأينا في فصل سابق كيف أنّ الملابس تنوعت بشكل غريب، وأصبح لكل جماعة أو طبقة نوع خاص بها كما أنّه كان لكل مناسبة زي خاص بها فضلاً عن إقبال الأغنياء والأمراء على اقتناء الملابس بكميات كبيرة جداً لهذا شجعت الحكومة على استيرادها من الخارج من جهة وصنعها في الدّاخل من جهة أخرى.

ومن البديهي حقاً أن تكون صناعة النّسيج أوّل أمرها صناعة بسيطة بدائية ذات أغراض محدودة، ولكنها تطورت بمرور الزّمن حتّى أصبح لأهل الكوفة شهرة واسعة ومهارة خاصة بصناعة (الوشي)[٣] وهو نسيج حريري مطرز، وقد اشتهرت الكوفة أيضاً بصنع (الخز)[٤]، وليس أدل على ذلك من قول ابن الفقيه: «إنّ للكوفيين مهارة خاصة في صنع الوشي وفي صنع الخز»[٥] وقد لاقت هذه المنسوجات رواجاً كبيراً في الأقطار الإسلامية كافة، كما كانت للكوفة شهرة واسعة في صنع العمائم الكوفية المنسوجة من الخز المشهورة بجمالها وجودتها[٦]، وكذلك صنعت المناديل الحريرية المستعملة لتغطية الرأس والّتي لا تزال تسمى حتّى اليوم بالكوفية[٧].

ومن المنسوجات الكوفية أيضاً الثّياب أو الحلل النّجرانية وقد نقل (عرب اليمن) صناعتها إلى الكوفة عندما هاجروا إليها وسكنوها، كما استعمل عرب الكوفة من المنسوجات (الملحم[٨]، والعتابية[٩]، والسّقلاطون[١٠]».

(١) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٤٥.

(٢) Pope, Survery of Persian Art. Vol. III. P. ١٩٩٦.

(٣) الجاحظ: التّبصر بالتّجارة ص١٩.

(٤) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢، الخز: نسيج رقيق يعمل من الصّوف والحرير.

(٥) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢، Dozy, p. ٤٣٧.

(٦) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١٢٨.

(٧) Dozy, p. ٤٩٣

(٨) الملحم: وهي ثياب سداها من الحرير ولحمتها من القطن Dozy, p. ١١٣.

(٩) العتابية: وهي ثياب مخططة تصنع من خيط القطن والحرير Dozy, p. ٤٣٦.

(١٠) Pope, Survey of Persian Art. Vol. III. P. ١٩٩٦.

وقد كان للحيرة (وارثة الحضارة السّاسانية)[١١] فضل كبير في تطوير صناعة النّسيج في الكوفة وعلى هذا الأساس كانت مركزاً هاماً قبل بناء الكوفة لصناعة المنسوجات بأنواعها فكان ينسج فيها أقمشة قطنية وصوفية وأقمشة من الوبر[١٢] وأقمشة موشاة بالقصب أو مطرزة بالذّهب، وقد أشار يوسف غنيمة في حديث عن المناذرة إلى خروجهم في كل عيد (... وعليهم حلل الدّيباج المذهب)[١٣].

ومن ألبسة الحيريين أيضاً الطّيلسان وكانت هذه الألبسة من جملة ما فرضه خالد بن الوليد من جزية على النّصارى العباديين وزعيمهم عبد المسيح بن بقلة[١٤].

ومن الثّياب الحيرية (الشّرعبية والسّيراء) ومن ألبستهم أيضاً (أثواب الرّضا) وهي جباب (جبب) أطواقها من الذّهب في قضيب الزّمرد، ويظن أنّ ملوك الحيرة كانوا يهبونها لمن رضوا عنه وأصدق لهم الخدمة[١٥].

هذا وكانت للثياب الحارية (الحيرية) شهرة واسعة في القرن الرّابع الهجري[١٦] لما امتازت به من متانة وجمال، وكانت مدينة «الأنبار»[١٧] مركزاً هاماً لنسج العباءات القطوانية، وصناعة الأقمشة الحارية وقد انتقلت إلى الكوفة بعد أن هاجر سكان الحيرة إليها، وبعد أن أصبحت الحيرة مدينة ثانوية تابعة للكوفة، ولم تخل مدينة من المدن في ذلك العصر من الحاكة ونسّاجي الأقمشة وقد امتلأت الكوفة ومدنها التّابعة لها بهم، وذكر ابن رستة قائلاً: «وكانت مدينة – قصر بن هبيرة- مملوءة بالحاكة»[١٨] ويقصد بها الكوفة.

وصنع في مدينة الكوفة أيضاً (الخُمُر) الّتي تضعها النّساء على وجوههن وكان يحمل منها بكميات كبيرة إلى الحجاز فتتهافت نساؤه على شرائها[١٩].

(١١) لقد وصلت صناعة النّسيج أوجها في العصر السّاساني، وقد وصلت إلينا بعض القطع الجميلة من المنسوجات الحريرية السّاسانية وهي مكونة من مجموعات من دوائر أو أشكال هندسية فيها رسوم حيوانات أو طيور أو فرسان في الصّيد متقاربة أو متجاورة وفي ترتيب هندسي بديع ويفصلها في بعض الأحيان رسم شجرة محورة عن الطّبيعة ترمز إلى شجرة الحياة أو شجرة الخلد، زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٤٥.

(١٢) Dozy, p. ٧٨٨.

(١٣) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٦.

(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٦.

(١٥) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٣.

(١٦) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٣.

(١٧) الأنبار: وهي مدينة بضواحي الكوفة وسميت بهذا الاسم حيث كان أصحاب النّعمان وصنائعه يأخذون أرزاقهم منها: البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٧.

(١٨) ابن رستة: الأعلاق النّفيسة ص١٢١.

(١٩) الأصفهاني: الأغاني ج٢ ص١٧٣.

وقد تتلمذ الصّنّاع العرب على أيدي الصّنّاع الفرس وغيرهم من أهل البلاد الأصليين، وساعد تنقل عمال النّسيج من مكان إلى آخر على انتشار أساليب متنوعة وطرق فنية مختلفة إلى مختلف نواحي البلاد الإسلامية[١].

هذا وقد استلزمت صناعة النّسيج وجود صناعة الصّباغة، فقد استعمل العرب الأصباغ النّباتية (وهي الّتي تستخرج من النّباتات لصبغ الأقمشة)، هذا وأنّ جميع الألوان الزّرقاء تصبغ عادة «بالنّيلة»[٢] أمّا اللون الأحمر فكان يستخرج عادة من «الفوه»[٣] والأصفر كان يستخرج من الزّعفران وغيرها من الألوان.

وقد تفنن الصّباغون في الصّباغة فأوجدوا ألواناً متعددة وذلك بخلط الأصباغ الأوّلية بنسب معينة لإيجاد مختلف الألوان.

وقد كانت بعض الملابس يكتب عليها بالخطّ العربي كتابات متنوعة كأبيات الشّعر أو بعض الأدعية، كما يكتب على النّسيج نفسه مكان نسجه وتاريخه، ولدينا أمثلة واضحة على ذلك، وقد عملت الحكومة دور النّسيج الخاصة للخلفاء والأمراء سمتها دار الطّراز[٤] تنتج فيها ما تحتاجه الحكومة من الملابس الفاخرة.

كما أنّ الحيرة عرفت بصناعة (البسط)[٥] وكانت للبسط الحيرية شهرة واسعة في ذلك العصر فكانت تزين برسوم الحيوانات وكان ينسج فيها صور الخيل والجمال والفيلة والطّيور[٦] كما رسمت فيها رسوم هندسية كالمستطيلات والمربعات أو غيرها بألوان زاهية مختلفة، وكان الصّوف والوبر من أهم المواد المستعملة في الحياكة.

وهناك أنواع جيدة من السّجاد كان أهل الكوفة يتقنون حياكتها وكانت البسط والسّجاد تستعمل لأغراض مختلفة فمنها ما يفرش على الأرض وهي إمّا كبيرة وتسمى (البسط) أو مستطيلة وتسمى (الأنخاع) والبعض منها يعلق للزينة ويسمى (الأنماط) وهناك نوع خاص للصلاة يسمى (السجاد)[٧].

وترجع شهرة البسط (الحيرية) إلى تأثرها الكبير بصناعة السّجاد الإيراني الذي ترجع شهرته إلى عصور قديمة جداً[٨] وكذلك اشتهرت مدينة (النّعمانية) بصناعة البسط أيضاً وكانت الرّسوم الّتي ترسم في بسط الحيرة تقلد في النّعمانية حتّى أنّ مصنوعاتها من البسط كانت تسمى بالبسط الحيرية[٩] واشتهرت منطقة ميسان ودست ميسان بصناعة أجود البسط والسّتائر[١٠] كما أنه اشتهرت واسط بصناعة السّجاد[١١].

وصنعت الوسائد أيضاً وعملت من نسيج الصّوف واستعملت للنوم والجلوس.

وكانت صناعة الخيام من الصّناعات المهمة عند أهل الكوفة وكانت تصنع عادة من الصّوف أو الشّعر أو الوبر أو القطن وتختلف أسماء الخيام بالنّسبة للمادة المصنوعة منها وبالنّسبة لحجمها أيضاً فالخيمة المصنوعة من الصّوف تسمى بـ (الخباء) والخيمة المصنوعة من الشّعر تسمى بـ (الفسطاط) والخيمة المصنوعة من الوبر تسمى بـ (البجاد) والخيمة المصنوعة من القطن تسمى بـ (السّرادق) وهناك نوع خاص من الخيم يدعى (الطّراف) يصنع من نوع خاص من الجلد يستعمله الأغنياء وذوي الثّراء[١٢].

ومن هذه الصّناعات أيضاً صناعة الحصر، وكانت تصنع من سعف النّخيل وأوراق البردي والحلفاء والقصب وغيرها ويستعمل لفرش الأرض أو لتعليقها على الجدران.

---

(١) Pope, Survey of Persian Art. Vol. III. P. ١٩٩٢.

(٢) النّيلة: نبات يزرع في إيران يستعمل لصبغ الألوان الزّرقاء، ولكنه أخذت تجلب هذه النّيلة في الآونة الأخيرة من البنغال، وطريقة استعماله أن توضع النّيلة في أواني فخارية كبيرة (avat) وتغلق ثمّ توضع الأقمشة المراد صبغها، وهي لا زالت موجودة حتّى الآن في العراق.

(٣) الفوه: اسم نبات يستعمل لصبغ الأقمشة باللون الأحمر.

(٤) بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدي محمّد أمير المؤمنين أصلحه الله محمّد بن سليمان أن يصنع في طراز تنيس كسوة الكعبة على يدي الخطاب ابن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة. وهناك نص آخر (بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدي محمّد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يدي الحكم بن عبيد سنة اثنتين وستين ومائة).

(٥) تعود صناعة البسط في العراق إلى العصر البابلي ولا تزال موجودة حتّى الآن وساعدت ظروف الحياة الرّعوية بصورة خاصة على ظهور هذه الصّناعة ويكون عادة الصّوف من أهم المواد المستعملة في صناعة البسط والسّجاد ويظهر أنّه كان يستعمل في سدى جميع البسط إلا القليل منها إذ كان سداها من الحرير، وكان القطن والكتان يستعمل أحياناً في صنع البسط – الدّوري- تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٣.

(٦) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٣.

(٧) الألوسي: بلوغ الأدب، ج٣ ص٣٩٣- ٣٩٤، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٣.

(٨) زكي حسن: فنون الإسلام ص٣٩٧. امتاز السّجاد الإيراني بأنّ العناصر الهندسية والنّباتية الّتي غلبته وميزتهع عن غيره من السّجاد منذ العصر الإسلامي حتّى القرن التّاسع الهجري ويرجع جمال السّجاد الإيراني وشهرته إلى جمال ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها إلى متانة الصّناعة وجودة الأصواف – كما وجد أنّ البسط الإيرانية قد كتب عليها كتابات جميلة بخطّ كوفي بديع زكي حسن: فنون الإسلام ص٣٩٨.

(٩) ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص١٨٦، يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٣.

(١٠) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٣، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٤.

(١١) الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٤.

(١٢) الألوسي: بلوغ الأرب ج٣ ص٣٩٣- ٣٩٤.

(ب) الحدادة:

لقد كان للأسلحة أهمية كبرى في حياة العرب منذ العصر الجاهلي ونظراً لقلة مناجم الحديد في الجزيرة العربية كان العرب يستوردونه من البلدان الأخرى لاستعماله في صنع الأسلحة ولاسيما السّيوف والدّروع والرّماح والأسنة وغيرها، ولما لم تكن صناعة الأسلحة هذه تسد حاجة العرب بما يحتاجونه من السّلاح فصاروا يستوردونها من بقية الأقطار المشهورة بها كدمشق واليمن والهند وغيرها.

ولما كانت الكوفة قاعدة حربية قبل كل شيء ومركزاً تجتمع فيه جيوش العرب للخروج إلى الفتح فقد نشطت فيها صناعة الأسلحة وتجارتها.

وقد استخدم أهل الكوفة عدة معادن في هذه الصّناعة مثل الحديد والنّحاس والبرنز، وكانت في الكوفة سوق خاصة لهذه الصّناعة تسمى (سوق الحدادين) تقع بجانب سوق البزازين[1] وقد ترك الحيريون أثراً عظيماً في نمو هذه الصّناعات وتقدمها كما تركوا أثراً مشابهاً في جميع أوجه النّشاط الصّناعي بالمدينة، وكانت للحيرين مهارة خاصة في صناعة الأبواب الحديدية[2] ومشكات السّلاح والسّيوف الحيرية الشّهيرة والسّهام ونصال الرّماح.

ووردت في البلاذري إشارة إلى أنّ المسلمين العرب زاولوا مهنة الصّناعة إذ قال: «إنّ الهالك أوّل من عمل الحديد من العرب في الكوفة وكان ولده يعيرونه بذلك»[3]، كما صنع العرب أواني الطّبخ والقدور من النّحاس.

(جـ) النّجارة:

كان لصناعة النّجارة مكانة خاصة في الكوفة، وكان النّجارون يصنعون الأثاث المنزلي كالمناضد والكراسي[4] والأبواب وغيرها، وقد صنعت كؤوسٌ خشبية في دير الجماجم[5] وكان استعمال هذه الكؤوس شائعاً في ذلك العصر كما كانت تصنع أدوات القتال كالرّماح والسّهام والأقواس وغيرها، هذا وكان لأهل الحيرة تأثيرٌ كبيرٌ في تطوير النّجارة وتحسينها حيث كانت لهم اليد الطّولى في فن النّجارة والتّنجيد[6].

ونشطت كذلك صناعة السّفن والقوارب، وكانت صناعتها على أشكال مختلفة منها قوارب صغيرة تسير في دجلة والفرات وسفن كبيرة للحرب والتّجارة أو السّفر، وقد أجرى الحجاج عليها إصلاحات فكان أوّل من أجرى في البحر السّفن المقيّرة المسمرة غير المخروزة والمدهونة وذوات الجآجئ[7].

وكان في الأبلة كثيرٌ من دور صناعة السّفن[8].

(د) الخزف أو (الفخار):

لقد كان إنتاج الخزف في العالم الإسلامي كثيراً جداً، وقد وصل إلينا من الخزف الإسلامي أكثر مما وصل من أي نوع آخر من أنواع التّحف الإسلامية، وقد امتاز صناع الخزف في العراق بتنوع إنتاجهم في أشكاله وفي طرق الزّخرفة وأساليب الصّناعة[9]، وقد أكد المؤرخون أنّ هذه الصّناعة وجدت في العراق وإيران في فجر الإسلام[10].

وكان لمدينة الحيرة في العراق (وارثة الحضارة السّاسانية) الأثر الأكبر في نقل هذه الصّناعة إلى الكوفة بعد أن انتقل إليها معظم سكانها كما قلنا سابقاً، وعلى هذا الأساس شاركت الكوفة مدينة الحيرة شهرتها بصناعة الفخار[11].

وصنعت في مدينة الكوفة الأواني الفخارية والجرار ذات الألوان الزّاهية[12].

وقد تفنن الكوفيون خاصة والعراقيون عامة في هذه الصّناعة حيث استطاعوا أن يطوروا أساليبها وأن يتقنوها فنجحوا في هذا نجاحاً كبيراً كما أنّهم نجحوا في إبداع أنواع فاخرة من الطّلاء منها أبيض زبدي، ولون أزرق وأخضر فيروزي ولون أحمر بنفسجي[13]، وكان لتلوين الفخار ورسم النّقوش عليه أثر في رواجه، وكانت هذه النّقوش عادة على شكل رسوم هندسية كالدوائر والعقود المتشابكة والطيور المتقابلة والمتدابرة والحيوانات الّتي تحيط بها فروع النّباتات والوريقات فضلاً عن الرّسوم الآدمية[14]، وكتابات كوفية وتخطيطات مشجرة وصور في بعض الأحيان[15].

---

(١) ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.

(٢) ياقوت: معجم البلدان مادة (ديرسكون).

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٣، ابن حزم الأندلس: جمهرة أنساب العرب ص١٨٠.

(٤) الطّبري ج٧ ص٢٥٠.

(٥) دير الجماجم: ضاحية من ضواحي الكوفة.

(٦) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٥.

(٧) الجاحظ: البيان والتّبيين ج٢ ص٣١٤- ٣١٥، الجأجئ: مقدمات السّفن العالية.

(٨) يوسف غنيمة: الحيرة ص٥٨١، الدّوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص١٠٣٢.

(٩) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٥٨.

(١٠) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٥٩.

(١١) لقد كات صناعة الفخار في العراق قديمة جداً وكانت الأدوات المعمولة منه هيه الأدوات الشّائعة قبل إدخاله المعدن والزّجاج في الحياة الاعتيادية، وصنعت من الفخار الجرار الكبيرة والصّغيرة للماء وللنبيذ وكذلك الأواني، والكؤوس، والسّروج، والحباب، وهي من الفخار غير المزجج، الدّوريك تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٧.

(١٢) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨١

(١٣) زكي حسن فنون الإسلام ص٢٥٩.

(١٤) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٦١.

(١٥) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٩.

هذا وقد عثرت بعثة رتلنكر على طائفة كبيرة من الأواني الفخارية في أطلال الحيرة مختلفة الأشكال[١] مطلية بطلاء ذي ألوان زاهية.

لقد قطعت هذه الصناعة شوطاً بعيداً في مضمار التّقدم والرّقي حتّى إنّ المعتصم لما بنى مدينة سامراء جلب إليها صناع الخزف من الكوفة والبّصرة[٢].

هذا وأغلب الظّن أنّ صناعة الخرف في الكوفة اقتبسها العرب من الفرس وانتقلت إليهم على أيدي الصّناع الإيرانيين وغيرهم من سكان الحيرة الّذين انتقلوا إلى الكوفة بعد بنائها.

وقد أكد هذا زكي حسن إذ قال: «إن الخزف الإسلامي بوجه عام كانت صناعته في بداية الأمر ذيلاً لصناعة الخزف السّاساني. وطبيعي أنه أخذ في فجر الإسلام يبتعد شيئاً فشيئاً عن الأساليب القديمة (السّاسانية) حتّى أصبح له طابع إسلامي ظاهر»[٣].

ومما يميز الأواني الخزفية الإسلامية الجديدة هو البريق المعدني وذلك أنّ الخزافين المسلمين استطاعوا أن يطوروا صياغة الخزف وتلوينه وأن يكسبوه بريقاً معدنياً، وأكد زكي حسن أن نشأة الخزف ذي البريق المعدني كان في العراق أوّل أمره[٤].

هذا وقد عثر المنقبون على تحف من الخزف ذي البريق المعدني في إيران والعراق ومصر وغيرها[٥].

لقد كانت الأساليب الفنية في صناعة الخزف تنتشر بسرعة عظيمة في شتى أنحاء العالم الإسلامي، وقد عثر منقبو الآثار في مصر وإيران والعراق والشّام على كثير من الأنواع المشتركة بين تلك الأقاليم[٦].

كما اشتهرت مدينة الرّقة بالخزف والفخار، وقد امتاز هذا الخزف بالذوق الفني الرّفيع. وقد تأثر الخزف الرقي بالفن الإسلامي بالإضافة إلى الفن الهلينستي. لقد كان الفن الإسلامي قد أخذ صورته الرّوحية من بلاد العرب أما قوامه المادي فقد تم صوغه في أماكن أخرى كانت له فيها قوة وحياة، وعلى هذا فإن الخزف هذا امتاز بروحه الإسلامية وقوامه المادي بالفن السّاساني والفن الهلينستي، وأصبحت مدينة الرّقة أشبه ببودقة اشتملت على عدة فنون متضاربة صهرتها وأخرجت لنا فناً

(١) مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ص١٦٦، ١٩٣٠، يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٥.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص٢٦٤.

(٣) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٦١.

(٤) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٦٠، الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٨.

(٥) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٥٩.

(٦)زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٥٨.

مميزاً بطابعها الخاص[٧]. وقد وجدت الحفريات الّتي أجريت هناك نماذج جميلة ذات ألوان زاهية براقة فكان منها ما هو مطلي ومنها ما هو غير مطلي[٨]. وقد وجدت فيه نقوش جميلة سوداء ومنها متعددة الألوان حتّى أنه وجد فيها خزف ذو بريق معدني بالألوان المختلفة[٩].

لم تقتصر صناعة الكوفة على الخزف وحدها وإنما كان إلى جانبها صناعة القاشاني المزجج الّذي استعل في أغراض شتى كالبناء وغيرها. وقد كشفت لنا حفريات الكوفة بعض هذا القاشاني وقد كتب عليه بالحروف الآرامية والسّريانية وظهرت فيه كتابات عربية بالخط الكوفي وكانت معظم هذه الكتابات تنطوي على معاني الاستغفار والتّوبة[١٠].

وتوجد بين أيدينا نصوص كثيرة واضحة لهذا الغرض كتبت على الطابوق المزجج وزينت فيها المباني والعمارات وبعض المباني الهامة، «بسملة، وقيم السّماوات والأرض وسعت رحمتك كل شيء، سبحانه وتعالى عما يشرك المشركون نسألك اللهم برحمتك وأسمائك الحسنى وبوجهك الكريم وسلطانك العظيم وكلماتك التّامة الّتي بها تقوم السّماوات والأرض وبها نعصم برحمتك من الشياطين وننجى بها من عذابك يوم القيامة وبنعمتك السّابغة وفضلك العظيم وبحلمك وقدرتك وعفوك وبجودك أن تصلي على محمد عبدك ونبيك وتتقبل شفاعته في أمته صلى الله عليه وسلم عليه ورحمة الله»[١١]. كما كتبت عليه لوحات فيها الكثير من الوعظ والإرشاد[١٢].

واستعمل القاشاني في شواهد القبور كتب فيه اسم الميت وتاريخ وفاته وبعض الأدعية وغيرها. «بسملة، هذا القبر لعبد الرّحمن بن خيري الحجري، اللهم اغفر له وأدخله في رحمة

(٧) سعاد ماهر: (فصله من مجلة كلية الآداب) (خزف الرّقة) ج٢ م١٦ ص١١١.

(٨) سعاد ماهر: نفس المصدر السابق ص١١٢.

(٩) سعاد ماهر: نفس المصدر ص١١٤، ١١٥.

(١٠) مجلة سومر: محمد علي مصطفى: (حفريات الكوفة) ج١ ص٤.

(١١) repertoire: vol.١ p.١٠

بسم الله لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبد الله ورسوله أمر عبد الله أمير المؤمنين بتقوى الله وطاعته والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وبصلة الرحم وتعظيم ما صفر الجبابرة من حق الله وتصغير ما عظموه من الباطل وإحياء من أمانوا من الحقوق وإماتة ما أحيوا من العدوان وأن يطاع الله ويعصي العباد في طاعة الله، والطاعة لله ولأهل طاعة الله ولا طاعة لأحد في معصية الله يدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى العدل في أحكام المسلمين والقسم بالسوية في فيئهم ووضع الأخاس في مواضعها الّتي أقر الله بها بذوي القربى واليتامى والمساكين.

Repertoire, chronologique depigraphique arabe vol. i, p. ٣٠.

(١٢) نفس المصدر السّابق ص٦.

منك وإبنا معه، استغفر له إذا قرأ هذا الكتاب وقل آمين وكتب الكتب في جمادى الآخر من سنة إحدى وثلاثين»[1].

ويكون شاهد القبر أحياناً خالياً من عبارات الدعاء والاستغفار مقتصراً على اسم المتوفى. «بسملة هذا قبر عروة بن ثابت توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة».

كما استعمل القاشاني أيضاً في كتابة اللوحات التّذكارية فيكتب فيها تاريخ إنشاء بعض المرافق العامة واسم الخليفة واسم المهندس المعماري الّذي أشرف على العمل كإنشاء القباب[2] والقناطر[3] وتعمير الطرقات[4] أو بناء المساجد[5] وتوسيعها، وبناء المدن وغيرها[6].

(هـ) صناعة الدّهون:

كانت صناعة استخراج الدّهون[7] من البذور في الكوفة من الصّناعات القديمة التّي كان يزاولها سكان هذا المصر، وكان من أهم الزّيوت التّي تستخرج زيت الزّيتون وزيت السمسم ودهن اللوز[8] ودهن الخروع ودهن بذور القطن والكتان وصار لها سوقٌ خاصٌ في الكوفة سمي سوق الزّياتين[9].

وكان لعمال هذه الصّناعة مهارة خاصة ميزتهم عن باقي صناع المدن الأخرى حتى أن المعتصم لما بنى سامراء جلب عمال الزّيت من الكوفة[10].

وكانت الكوفة والبصرة من أشهر المناطق في صناعة العطور فصنعت ماء الورد ودهن البنفسج[11].

ولقد طبقت شهرة الكوفة الآفاق في استخراج هذا النّوع من الطّيب الذّي استخرج من الأزهار التّي زرعوها لهذا الغرض.

ومن صناعة أهل الكوفة أيضاً الدّباغة وصنع الأحذية وتسمى الأخفاف وتصنع الأخفاف هذه من الجلد المدبوغ فيدعونه «السّبت» وينتعل بها السّادة[12] من الطّبقة الارستقراطية.

نشطت هذه الصّناعة في الحيرة ثمَّ انتقلت منها إلى الكوفة وقد استعمل صناع الجلود قشور الرّمان للدّباغة[13].

(و) الصّياغة:

اشتهرت الحيرة منذ فجر تاريخها بالصّياغة قبل بناء الكوفة، حيث كان صياغ الحيرة يصوغون الذّهب والفضة ويرصعونها بالجواهر، وأشار يوسف غنيمة إلى أن النّعمان كان يركب في كل عيد ومعه أهل بيته وعليهم حلل الدّيباج المذهبة وعلى رؤوسهم أكاليل الذّهب، وفي أوساطهم الزّنانير المفضضة بالجواهر وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان فإذا قضوا صلواتهم انصرفوا إلى مستشرفة في النّجف[14]. ولما بنيت الكوفة انتقل إليها عدد كبير من هؤلاء الصّاغة وتركوا مدينة الحيرة التّي بدأت تتضاءل بالنّسبة للكوفة وقد لاقت هذه الصّناعة في مدينة الكوفة رواجاً شديداً وإقبالاً كبيراً لزّيادة التّرف وتطور المجتمع السّريع وكانت أدوات الزّينة للنّساء أهم هذه الصّناعة ومحورها التّي كانت تصنع من الذّهب والفضة، فكان يصنع للنّساء الأكاليل والأساور والخلاخيل والمعاضد والقلائد والعقود والخواتم وغيرها.

وكان كثيرون من الأغنياء المترفين يصنعون بعض أدواتهم من الذّهب والفضة لإظهار التّفاخر، كالأواني والكؤوس[15]

---

(١) نفس المصدر السّابق.

(٢) ((بسملة إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله صلى الله عليه، بنى هذه (القبة) عبد الله عبد الله الإمام المأمون سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضي عنه آمين رب العالمين والحمد لله)). Repertoire, vol. ١. P. ٩

(٣) ((هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير اللهم بارك له في أمره كله وثبت سلطانه على ما ترضى وأقر عينه في نفسه وحشمه آمين وقام ببنائها سعد أبو عثمان وكتب عبد الرّحمن في صفر سنة تسع وستين)). Repertoire،٧.p.١.vol

(٤) ((أمر بعمارة هذا الطّريق وصنعه الأميال عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين رحمة الله على من أيليا إلى هذا الليل ثمنية أميال)). ١٤.p.١ vol. Repertoire

وهناك نص آخر ((أمر بعمارة هذا الطّريق وصنعة الأميال عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين رحمة الله عليه من دمشق إلى هذا الميل سبعة أميال ومائة ميل)). Repertoure،١٥.p.١.vol

(٥) بسملة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا نعبد إلا إياه ربنا الله وديننا الإسلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمر ببناء هذا ((المسجد)) وهدم الكنيسة التّي فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد ذي القعدة سنة ست وثمانين. Repertoire،١٧.p.١.vol

وهناك نصوص أخرى كتب فيها عن توسيع بعض المساجد كالمسجد الحرام ((بسملة محمد رسول أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزّيادة فيه نظراً منه للمسلمين واهتماماً لأمورهم وكان الذّي زاد فيه الضّعف مما كان عليه قبل وأمر بنيانه وتوسعته في المحرم سنة سبع وثلاثين ومائة وفرغ منه ورفعت الأيدي عنه في ذي الحجة سنة أربعين ومائة يتيسر أمر الله بأمر أمير المؤمنين ومعونة منه له عليه وكفاية منه له وكرامة أكرمه الله بها فأعظم الله أجر أمير المؤمنين فيها نوى من توسعة المسجد الحرام وأحسن ثوابه عليه فجمع الله...له به خير الدّنيا والآخرة وأعز نصره وأيده. Repertoire،٣١.p.١.vol

(٦) (بسملة لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله أمر بصنعة هذه المدينة عبد الله بن هشام أمير المؤمنين وكان هذا مما عمل أهل حمص على يدي سليمان بن عبيد سنة عشر ومائة). Repertoire،٢٤.p.١.vol

(٧) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢.

(٨) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص١٦٩، ١٤٩.

(٩) الطّبري: جـ٧ ص١٥٦.

(١٠) اليعقوبي: البلدان ص٢٦٤.

(١١) ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٢، الاصطخري: المسالك والممالك ص١٥٣.

(١٢) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٨.

(١٣) الجاحظ: البخلاء ص٢٣٧.

(١٤) يوسف غنيمة: الحيرة ص٨٣.

(١٥) البيروني: الجماهير في معرفة الجواهر ص٣٠، ديماند: الفنون الإسلامية ص٣٢ و٣٤.

وفضلت في زخرفتها مناظر الصّيد والحيوان والطّيور، كما صنعوا من الذّهب والفضة أدوات الزّينة وقد فاقت حد التصور، وقد أهدي إلى مصعب بن الزّبير نخلة مصنوعة من الذّهب عليها أنواع الجواهر منظومة بين السّعف على مثال «البسر والتّمر» وقد قدر ثمنها بألفي ألف دينار[١].

وكان لهذه الصّناعة سوق خاصة بها في الكوفة يقع بالقرب من الجامع من جهة القبلة[٢] (الجهة الجنوبية). يسمى سوق الصّاغة.

(ز) صناعة الصّابون:

كان لصّناعة الصّابون أهمية كبيرة في حياة سكان الكوفة ولا سيما بعد أن انغمسوا في التّرف والنّعيم وعلى هذا الأساس بنيت الحمامات العامة فيها بكثرة وأشهر هذه الحمامات حمام (أعين)[٣] وحمام (عمر)[٤] الذّي كان ينسب إلى عمر بن سعد بن أبي وقاص.

وكان للصّابون الذّي يصنع موقع خاص من السّوق الذّي يباع فيه قال الطّبري عند ذكره لبناء مسجد الكوفة «حين عزموا على بناء المسجد وضعوه في موضع أصحاب الصّابون والتّمارين من السّوق»[٥].

وكان سكان الكوفة يستعملون الصّابون بكثرة في المناسبة الدّينية ولا سيما الأعياد ولم تشر المصادر إلى الكمية التّي يحتاجها سكان الكوفة من الصّابون في هذه المناسبة.

وقد كان الصّابون يصنع على هيئة قطع جامدة. وكانت (الرّقة) بعد الكوفة من أعظم مراكز صناعة الصّابون في القرن الرّابع الهجري[٦].

ويسمى بالصّابون (الرّقي) نسبة إلى الرّقة[٧].

(ج) صناعة النّبيذ:

اشتهرت الكوفة بصناعة النّبيذ، وصار لنّبيذها شهرة واسعة في العراق مما أدى إلى أن تنتج منه كميات كبيرة، وكانت كثرة الأعناب وغنى الكوفة وضواحيها بالبساتين سبباً في دفع أهلها للاستفادة من هذه الأعناب التّي تفيض عن حاجة الاستهلاك، فكانوا يقولون «لو لم تعصر الأعناب لبارت على أهلها»[٨]. ومن الأسباب الأخرى:

(١) البيروني: الجماهير في معرفة الجواهر ص٦٨.
(٢) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٦.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٠.
(٤)البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٠.
(٥) الطّبري: جـ٣ ص١٤٨.
(٦) المقدسي: أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٤١، ١٤٥.
(٧) وهو صابون جاف يصنع على شكل أقراص.
(٨) ابن قتيبة: الأشربة ص٦٦ ط دمشق ١٤٧.

أن بعض الأطباء كانوا يصفونه علاجاً للمرضى «حيث كان ابن ابجر طبيب الكوفة المشهور يصفها لهم»[٩].

هذا بالإضافة إلى حياة التّرف واللهو التّي سيطرت على المجتمع الكوفي.

كان لخمور الكوفة شهرة واسعة خارج العراق، فقد كان يرسل من هذه الخمور كميات كبيرة إلى جزيرة سرنديب (سيلان) حيث أن ملك الجزيرة كان يشرب الخمور العراقية بكثرة»[١٠].

(ط) العمال والحرفيون:

يمكننا أن نقسم العمال في الكوفة إلى قسمين أحدهما «العمال المأجورون»[١١] وهؤلاء العمال يشتغلون لحساب أشخاص آخرين وليس لحسابهم الخاص، لقاء أجور معينة على عملهم هذا، وتكون أجورهم عادة أجوراً يومية أو بالقطعة.

وكان مكان المعمل عادة بيوتهم الخاصة أو بيوت مستخدميهم (أصحاب العمل) أو في حوانيتهم الخاصة التّي أعدت لهذا الغرض[١٢].إن هؤلاء العمال كانوا مرتبطين ارتباطاً كلياً برب العمل وتحت سيطرته وهو الذّي يتحكم في مصيرهم.

أما القسم الثّاني فيمكن أن نسميهم (العمال المستقلين) عن رب العمل ورئيسه، وهؤلاء كانوا يشتغلون لحسابهم الخاص وهم يمتلكون العمل نفسه، وتكون الأرباح عادة لهم وعليهم الخسارة كل هذا جعلهم يشعرون بالاستقلال التّام في عملهم. ويكون مركز عملهم هذا في بيوتهم الخاصة أو في حوانيتهم، ويستخدم هؤلاء العمال (الصّناع) ليساعدوهم في العمل، وقد يكون هؤلاء الصّناع من أولادهم، أو غيرهم من أفراد العائلة أو عمالاً يستأجرونهم لهذا الغرض[١٣]. وكان هؤلاء العمال يمتلكون أدوات ووسائل الإنتاج كما يمتلكون رأس المال[١٤] أيضاً وبعبارة أخرى يمتلك (المواد الخام والآلات) حتى يتمكنوا من القيام بعملهم بسهولة ويسر، بعيداً عن سيطرة رب العمل وتحكمه وسيطرة رأس المال وقد يعمل العمال المستقلون منتجاتهم بالاتفاق مع الزّبون الذّي يتعامل معهم ويتفق على سعر معين ليعمل له البضاعة المطلوبة، وأن يعرضها هو بنفسه أمام أحد الدّكاكين في السّوق أو أن يبيعها رأساً إلى تاجر الجملة ولا ينتج أكثر من الكمية المطلوبة للبيع

(٩) ابن قتيبة: الأشربة، ص٩٢ ط.
(١٠) ابن خرداذنه: المسالك والممالك ص٦٧.
(١١) صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٦٩.
(١٢) Boissonnde،Life work and ١٨١..p.Europe medieval in
صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٧٠.
(١٣) Boissonnde،Life work and ١٨١..p.Europe medieval in
(١٤) نفس المرجع السّابق.

وبهذا تكون أرباحه محدودة[١].

أما الصّناع (أو العمال المأجورون) الذّين كانوا يشتغلون عند العمال فكان أكثرهم من العبيد[٢] أو الموالي[٣] الذّين استوطنوا الكوفة بعد بنائها لسّد حاجة المجتمع من الصّناعات الاستهلاكية حيث أن الحرف والصّناعات اليدوية ظلت بعد الفتح الإسلامي فترة من الزّمن بيد أهل البلاد المفتوحة[٤].

وقد قسم هؤلاء العمال إلى أصناف ودرجات في العمل حسب مهارة العامل الفنية وقابليته فكان منهم عمال مهرة مثل (الحدادين، والنّجارين، والصّاغة والحاكة) نسبة إلى الأعمال التّي فيها نوعٌ من الإبداع والخلق وعمال عاديين. ويزاول هؤلاء الأعمال التّي لا تحتاج إلى التّفكير في العمل وإنما يكون عملهم عملاً يدوياً.

وهناك إشارات إلى أسماء المهن التّي اشتغل الموالي فيها، كالنّجارة[٥] وبيع الخز[٦] والبز[٧] والحدادين[٨] والخياطة والحياكة والحجامة[٩].

وكان هؤلاء العمال والصّناع خاضعين لرّقابة الحكومة (ولا سيما لصّاحب السّوق)[١٠] أو المحتسب فهو الذّي يحاسبهم على أعمالهم ليكفل سلامة البيع والشّراء. كما تأخذ الحكومة منهم الضّرائب والرّسوم على البضائع والحرف التّي يزاولونها[١١] وتكلفهم بالقيام بأعمال أخرى كتنظيف الشّوارع وكسحها وبناء المرافق العامة للدّولة وغيرها من أعمال السّخرة. وكانت الدّولة أو الحكومة تعفي الصّناع وأصحاب المهن من دفع الضّريبة في بعض الحالات تشجيعاً[١٢] لهم، وقيل إن ابن عامر عندما أنشأ سوق الكوفة جعلها حرة لا ضريبة عليها[١٣]. وليس معنى هذا أنهم لا يدفعون شيئاً إلى الحكومة في كل الأحوال، وإنما كانت تأخذ منهم ضرائب مباشرة وهي العشور (المكس) على ما يستوردونه من الخارج وقد لا تعدو درهماً واحداً[١٤] وكانت هذه المكوس عادة تلقى كثيراً من المعارضة من قبل التّجار والباعة وكانت مصدراً للاستيلاء والضّجر فلما جاء عمر بن عبد العزيز ألغى هذه الضّريبة وكتب إلى عامله يقول «ضع عن النّاس الفدية» وضع عن النّاس المائدة وضع عن النّاس المكس وليس بالمكس، ولكنه البخس الذّي قال الله فيه: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. فمن جاءك بصدقة فاقبلها منه ومن لم يأتك بها فالله حسيبه»[١٥].

ومن أهم الميزات التّي تمتع بها هؤلاء العمال هي حرية اختيار العمل أو المهنة[١٦]، فكان العامل في الكوفة يزاول أي مهنة يشاء وفقاً لقابلياته الخاصة وحسب رغبته واختياره، وقد يتركها لغيرها متى شاء وكذلك يستطيع أن يفتح حانوته في أي مكان يشاء من المدينة دون ما تدخل الدّولة في ذلك.

لم تكن هذه الحرف أو الصّناعات وراثية كما كان الحال في العصور الوسطى في أوروبا، إنما كانت حرية اختيار العمل والنّقل من مهنة إلى أخرى أمراً طبيعياً، كما أنّ العمال كانوا أحراراً في الجمع بين المهن أو الحرف المتعددة، فكان بعضهم يجمع بين مهنتين أو أكثر، وقد أشار السّكري إلى أن أبا دكين أحد موالي الكوفة «اشتغل ببيع العطور والرّقيق والدّواب في وقت واحد»[١٧].

كان لا بد لهؤلاء العمال من مؤسسات تحميهم من الاستغلال ولم تكن هناك بالطبع نقابات لهم طيلة القرن الأوّل الهجري بالمعنى المفهوم اليوم، إنما كان هناك نوع من التّكتل بين أصحاب الحرف والشّعور بروح الجماعة بين أهل الحرفة الواحدة. فقد كان كل واحد منهم يشعر بصلة قوية تربطه بإخوانه الذّين يزاولون نفس المهنة. وذكر «أن الصّناع وأصحاب المهن كونوا فيما بينهم رابطات كانت تقابل التّنظيم العشائري وقد أعطتهم هذه الرّوابط بعض الفوائد في حياتهم المهنية غير أنها لم تؤثر على وضعهم السّياسي أو الاجتماعي»[١٨]

وكان يقيم في هذه الأسواق عرفاء يقومون بحل المنازعات والخلافات في السوق بين الباعة أنفسهم أو بين المشترين والباعة.

---

(١) Boissonnde،Life work and ١٨١..p.Europe medieval in

(٢) وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٣١٠.

(٣)وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٣١٠.

(٤) زكي حسن: فنون الإسلام ص٧.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة جـ٦ ص٢٤٩.

(٦)ابن سعد: الطّبقات الكبيرة جـ٦ ص٢٣٧.

(٧)ابن سعد: الطّبقات الكبيرة جـ٦ ص١٤٧.

(٨) ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.

(٩)ماسنيون: خطط الكوفة ص١٨.

(١٠) الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٤٢٧.

(١١) لقد كانت هذه الضّرائب والرّسوم أشد وطأة عليهم من الخراج والجزية لأنها لم تكن محدودة أو مبنية على قاعدة أو نظام حيث كان مقدارها وزمن تأديتها منوطة بعمال الخليفة وجباة المال. بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص٥٧.

(١٢) Life:Boissonnade Work and،١٠٤..p

(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢٢.

(١٤) وقد جاء في قصيدة لجابر بن جنى التّغلبي (٥٦٤م) فقال:
وفي كل أسواق العراق أتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

(١٥) ابن سلام: الأموال ص٥٢٧، صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٧٤.

(١٦) Life:Boissonnade Work and،p..١٨١

(١٧) السكري: المحبر، ص٣٤٢.

(١٨) صالح العلي: التّنظيمات في البصرة، ص٢٧٧.

وقد ذكر وكيع «فقال سئل عن بيع السّنانير فقال كانت قضية في بيع (سوق) السّنانير وقضية في سوق الدّجاج فقضى فيها عريف سوق الدّجاج وعريف سوق السّنانير فأصاب عريف سوق السّنانير فجمع له شريح السّوقين»[1].

وأغلب الظّن أن الفوائد التّي حصل عليها العمال كانت فوائد معنوية فقط وهي تقوية الشّعور بروح الجماعة.

أمّا تأثيرهم في الوضع السّياسي فلم يذكر حيث لم يستطيعوا أن يتدخلوا في سياسة الدّولة أو يوجهونها حسبما يشاؤون أو حسب مصلحتهم الخاصة.

هذا وكان الانتساب إلى المهنة أمراً مألوفاً فقد حل محل الألقاب والكنى في بعض الأحيان، فكان بائع الزّيت يسمى الزّيات[2] وبائع التّمر (التّمار)[3] كميثم التّمار وبائع القماش يسمى (البزاز)[4] والصّائغ[5]، وعنترة الحجام[6] والحداد[7] وغيرها.

وكان أصحاب الصّنائع والحرف الواحدة يعيشون جماعات في محلات خاصة بهم أو في أسواق خاصة حيث كان لكل حرفة أو صناعة سوق خاص فيها مستقل عن غيرها. وكان في الكوفة سوق الحدادين وسوق الصّاغة وسوق الخياطين والقصارين. وقد ساعد هذا التّجمع على تكوين نوع من الشّعور بالمصلحة المشتركة وبقوتهم كطبقة أو ككتلة اجتماعية لها مصالحها الخاصة التّي يجب أن لا يستهان بها. وتكونت لهؤلاء الحرفيين بمرور الزّمن بعض العادات والتّقاليد الخاصة بكل مهنة من المهن وأصبحت نظاماً أو شبه قانون يسيرون عليه. وكان يجب على كل شخص الالتزام بها فلا يحيد عنها وإلا تفرض عليه بعض العقوبات المادية والمعنوية الرّادعة.

إن هذا التّماسك والاتحاد بين العمال والصّناع وهذه الأنظمة التّي نمت في بيئتهم أدت إلى أن تعترف بها الدّولة، كنظام خاص بهم ينظم حياتهم اليومية كما أخذ بها القضاة في فض المنازعات التّي تحدث بين هؤلاء الصّناع.

وليس أدل على ذلك من قول شريح لقوم من الغزالين احتكموا إليه: «إذا كانت بينكم سنة أعجمية فسنتكم بينكم»[8]. وهذا اعتراف من الدّولة باستقلال العمال ومراعاتهم.

(١) وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٣٩٧.
(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة جـ٦ ص٣٦٨.
(٣) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٦.
(٤) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٦.
(٥) الطّبري، جـ٨ ص١٣٥.
(٦) ماسنيون: خطط الكوفة ص١٧.
(٧) ماسنيون: خطط الكوفة ص٣١.
(٨) وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٣٥١.

ولقد كانت الدّولة تعامل هؤلاء الصّناع حسب أديانهم لا حسب حرفهم في بعض الأحيان، ولذلك لم تعترف لهم بأية رابطة مهنية أو تجمع مهني حتى أن الجزية كانت تجبيها الدّولة منهم عن طريق رؤسائهم الدّينيين وهم الدّهاقين[9] وكان بعضهم رؤساء لبعض الحرف في بعض الأحيان[10].

ولعله من العوامل التّي عاقت ظهور النّقابات في هذا العصر هي هجرات الصّناع التّدريجية غير المنتظمة وعدم وجود احتكارات أو قيود على الصّناعات واستخدام العبيد في الصّناعة بكثرة[11]. كما أن بساطة الحياة وعدم تعقيدها قللت مشاكل العمال ومطالبهم فلم يتطلب الأمر وجود سلطة أو هيئة أو منظمة لتحمي مصالحها العمالية من الضرر أو الاحتكار.

وكان بعض العرب على ما يظهر رغب في حياة العمل التّي كانوا يحتقرونها ويحتقرون من يشتغل بها. فشارك بعضهم الطّبقات العاملة في أعمالها.

فكان عمر بن سعد بن أبي وقاص يستغل حماماً ينسب إليه[12]. واعين خادم أبيه استعمل حماماً آخر[13] كما كانت لعرزم من بنى نهد جبانة (مقبرة) يضرب فيها اللبن[14].

الباب الرّابع
التّنظيمات المالية في الكوفة

١- موارد الكوفة المالية
٢- المصروفات
٣- مستوى المعيشة

الفصل الأوّل
موارد الكوفة المالية

كانت للكوفة موارد مالية معينة ثابتة تستطيع بواسطتها دفع رواتب الجند والموظفين والقيام بالخدمات العامة وكان من أهم موارد بيت المال

١- الخراج:

كان الخراج من أهم موارد الدّولة الرّئيسية الذّي اهتمت به ونظمته بشكل دقيق ويرجع الفضل في ذلك إلى الخليفة

(٩) صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٧٧.
(١٠) Life: Boissonnade Work and،p..١٠٣
(١١) صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٧٧.
(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٠.
(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٠.
(١٤) كان هذا اللبن رديئاً فيه قصب فر بما وقع حريق بها فاخترقت الحيطان حتى أن بعضهم أوصى إلا يجعل في قبره لبن عزرمي. البلاذري: فتوح البلدان ص٩١

عمر بن الخطاب، فقد عين أشخاصاً من ذوي الكفاءة والخبرة والأخلاق لمسح أرض كل قطر أو بلد لمعرفة مساحة الأرض الصّالحة فيه ومقدار الحاصلات الزّراعية حتى يتسنى له أن يفرض الخراج على هذه المناطق بصورة عادلة. وقد أرسل الخليفة خبراء من الصّحابة إلى العراق منهم عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان لمسح أراضي السّواد (أرض الكوفة) ولإحصاء أهله وتقدير الخراج والجزية عليهم، فصار حذيفة بن اليمان على ما وراء دجلة (شرق دجلة) وصار عثمان بن حنيف على ما دونه[1] (غرب دجلة). وأمرهما عمر أن لا يحملا أحداً فوق طاقته[2] أو أرضاً ما لا تطيق[3] كما أمرهما أيضاً ألاّ يمسحا تلاً أو أجمةً ولا مستنقع ماء أو أرضاً لا تبلغها المياه وأن يمسحا بالذّراع العمري[4].

وقد مسح عثمان بن حنيف أرض السّواد بدقة متناهية لأنه كان عالماً بالخراج من قبل حتى إنه قيل (مسحها مساحة الدّيباج)[5] دلالة على دقة المسح وبعد هذا فرض عمر بن الخطاب على كل جريب عامراً أو غامراً يناله الماء قفيزاً من الحنطة أو قفيزاً من شعير أو درهمان[6].

أما حذيفة بن اليمان فلم يوفق في عملية المسح هذه على الوجه المطلوب لأن سكان المنطقة لم يعينوه على أمره وغشوه. يقول أبو يوسف «أما حذيفة فكان أهل جوخى (شرق دجلة) قوماً مناكير فلعبوا به في مساحته»[7] ولم يقتصر وضع الخراج في السّواد على الحنطة والشّعير وإنما تعداها إلى محصولات أخرى فقد وضع على جريب السّمسم خمسة دراهم، وجريب الكرم عشرة دراهم، وعلى القطن خمسة دراهم وعلى خضر الصّيف في كل جريب ثلاثة دراهم[8] كما وضع على كل جريب من الزّيتون إثنا عشر درهماً[9] وجريب النّخيل ثمانية دراهم وجريب قصب السّكر ستة دراهم[10] وقد حمل من خراج السّواد (في أوّل سنة ثمانون ألف ألف درهم)[11] وقيل مائة ألف ألف درهم[12] في خلافة عمر بن الخطاب».

٢-الجزية:

أرسل عمر بن الخطاب عثمان بن حنيف كما رأينا سابقاً ليضع الخراج والجزية على أهل الكوفة وقد قسم سكان الكوفة وسوادها ثلاثة أقسام كل حسب حالته المالية ففرض ثمانية وأربعين درهماً على الأغنياء وأربعةً وعشرين درهماً على متوسطي الحال واثني عشر درهماً[13] على من دون ذلك وأعفوا النّساء والأطفال والشّيوخ وذوي العاهات[14] ورجال الدّين على أن تؤخذ هذه الجزية مرة واحدة في كل سنة حسب الشّهور القمرية[15].

٣-الغنائم:

لقد كانت هذه الغنائم مورداً رئيسياً لبيت المال ولاسيما في عصر الرّاشدين وبداية العصر الأموي عصر الفتوحات الإسلامية الواسعة، حيث كانت الغنائم في هذه المعارك كبيرة جداً. وكانت الحكومة تأخذ من هذه الغنائم خمسها وتوزع الأربعة أخماس الباقية على المقاتلة[16]. عملاً بالآية الكريمة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ....﴾.

واهتمت الحكومة اهتماماً كبيراً بالغنائم فكانت تعين أشخاصاً يشرفون على جمعها وتوزيعها على المقاتلة، وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد عين عبد الرّحمن بن ربيعة الباهلي على جمع الغنائم في القادسية[17]، وعين عمرو بن عمر المزني على جمع الغنائم في المدائن وسلمان بن الرّبيع على توزيعها[18] والسّائب بن الأقرع على تقسيم غنائم نهاوند[19] وسلمان بن الرّبيع على تقسيم غنائم جلولاء[20].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٦٩أ أبو يوسف: الخراج ص٢٣.
(٢) اليعقوبي: التّاريخ جـ٣ ص١٢٩.
(٣) أبو يوسف: الخراج ص٤٤
(٤) الذّراع العمري، هو ذراع وقبضة وإبهام قائمة فوق القبضة وينسب إلى عمر بن الخطاب. الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٦٦، اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٢٩٠.
(٥) أبو يوسف: الخراج ص٤٥، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٥٦.
(٦) أبو يوسف: الخراج ص٤٥.
(٧) أبو يوسف: الخراج ص٤٥.
(٨)أبو يوسف: الخراج ص٤٥-٤٦، الجريب: ذراع في ٦٠ ذراع يساوي ٣٦٠ ذراع مربعة أي حوالي ١٠٠٠متر مربع.
(٩) ابن سلام: الأموال ص٦٩.
(١٠)أبو يوسف: الخراج ص٤٣، ابن سلام: الأموال ص٦٩، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٥٧.
(١١) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٣٠.
(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٠، ياقوت: معجم البلدان (مادة السّواد)، ابن خراداذبه: المسالك والممالك ص١٤.
(١٣) ابن سلام: الأموال ص٤٠، أبو يوسف: الخراج ص٤٢، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٤٩.
(١٤) حسن ابراهيم: النّظم الإسلامية ص٢١.
(١٥) الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢٥١.
(١٦) الطّبري جـ٣ ص١٣٢، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص٢١٨.
(١٧) الطّبري جـ٣ ص٩، محمد حميدي الله أبادي: مجموعة الوثائق السّياسية ص٢٣٠.
(١٨) الطّبري جـ٣ ص١٢٩- ١٣١، ابن خلدون: التّاريخ جـ٢ ص٣٣٢ مصر ١٩٣٦م.
(١٩) الطّبري جـ٣ ص٢١٨، ابن سلام: الأموال ص٢٥٣، البلاذري: فتوح البلدان ص٣٠٢، البيروني: الجماهير في معرفة الجواهر ص٦٨.
(٢٠) الطّبري، جـ٣ ص١٣٦، ٢٠٤.

٤-الضّرائب على التّجار:

كان لابد أن تفرض ضرائب معينة على التّجار (الكفار) الذّين يقدمون في دار الحرب إلى الكوفة وقد فرضت عليهم الحكومة العشر. كتب أبو موسى الأشعري إلى الخليفة عمر بن الخطاب عامله في العراق بأن تجار المسلمين إذا دخلوا دار الحرب أخذوا منهم العشر فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بأخذ العشر إذا دخلوا العراق وأخذ من تجار أهل الذّمة نصف العشر[١]. كما طلب عمر من أبي موسى الأشعري أن يأخذ من تجار المسلمين ضريبة على تجارتهم أيضاً وهي ربع العشر[٢]. وتسمى هذه الضّريبة التّجارية «المكوس» وقد أشار الشّاعر جابر جنى النّعلبي إلى ذلك فقال:

وفي كل أسواق العراق إتاوة

وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم[٣].

وقد حرم الخليفة عمر بن عبد العزيز إقرار «المكوس» وقال المكس هو البخس الذّي نهانا الله عنه بقوله ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ورفض أن يعمل به رغم ما يدره من ربح ونفع للمسلين.

وقد استثنى من ذلك نصارى تغلب فعوملوا معاملة خاصة. قال زياد ابن حدير «أمرني عمر أن آخذ من نصارى تغلب العشر»[٤]. وقد جعل الخليفة عمر بن الخطاب حداً أدنى للتّجارة التّي تعفى من الضّريبة وهي أن تكون قيمتها مائتي درهم وتؤخذ هذه الضّريبة مرة واحد في السّنة[٥].

هذا وكان مقدار ما يجبى سنوياً من ضرائب التّجار يتوقف على الأحوال التّجارية في المدينة فكان يزداد مقدارها بازدهار التّجارة ويقل بتدهورها.

موارد أخرى:

طبق العرب في بداية عهدهم بالجباية نظاماً خاصاً بهم تحكمه ظروف الفتح وطبيعة البلاد المفتوحة، فالمدن التّي استسلمت للمسلمين بدون حرب أو مقاومة عوملت معاملة خاصة فيها الشّيء الكثير من التّسامح والرّفق.

فقد صالح المسلمون أهل (رامهرمز) على ثمانمائة ألف درهم[٦] وأهل (كرمان) على مليوني درهم وألفي وصيف[٧]، وأهل (مرو) على مليونين ومائتي ألف درهم[٨]، كما صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة على مائة ألف درهم[٩] وقيل تسعين ألف درهم[١٠]، وصالحوا أهل (الأنبار) في خلافة عمر بن الخطاب على أربعمائة ألف درهم وألف عباءة قطوانية في كل سنة وقيل على ثمانين ألفاً[١١]، كما صالحوا أهل بانقيا (قرب الكوفة) على ألف درهم وطيلسان سنوياً وصالحوا أهل (همدان) على مائة ألف درهم[١٢] وأهل الري وقوس على خمسة آلاف درهم[١٣] وأهل (أذربيجان) على ثمانمائة ألف درهم[١٤]، (وهي من فتوح أهل الكوفة) وصالح سعيد بن العاص والي الكوفة أهل (جرجان) على مائتي ألف درهم[١٥] وأهل (كابل) على ألف ألف درهم[١٦]، وأهل سجستان على مائتي ألف درهم[١٧] و (مرو الروذ) ستين ألف درهم[١٨]، أمّا المدن الأخرى الّتي فتحها المسلمون عنوة بحد السّيف فكان لقواد المسلمين الحق المطلق في فرض أي مبلغ يشاؤون ويكون هذا عادة أكبر بكثير مما يفرض على المدن الّتي استسلمت.

وكانت هناك قاعدة عامة اتبعتها الدّولة الإسلامية وهي أن تخصص لكل بلد واردات المقاطعات الّتي يفتحها جنوده، ولكن الدّولة اضطرت في بعض الأحيان أن تدفع العطاء للمهاجرين والأنصار والمسلمين الأوّل حتّى إذا لم يشتركوا بالفتوحات الإسلامية، كما أنّ واردات بعض المقاطعات كانت لا تكفي لسد حاجة الولاية الّتي فتحت، لهذا نرى الخليفة عمر يخصص لأهل (البصرة) واردات بعض المقاطعات الّتي فتحها الكوفيون وحدهم أو بالاشتراك مع البصريين (كنهاوند[١٩] وأصفهان[٢٠] أو قسم من الأهواز[٢١] وتستر (وهي من فتوح أهل الكوفة والبصرة معاً)[٢٢].

وقد عمد عمر بن الخطاب إلى هذه الإجراءات لتتمكن ولاية البصرة من سد نفقات المقاتلة الّتي لم تكن وارداتها كافية لسد

(١) يحيى بن آدم القرشي: الخراج ص١٧٣، ابن سلام: الأموال ص٥٣٠.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) الجاحظ: البخلاء ص٢٩٦.
(٤) ابن سلام: الأموال ص٢٩، الدّوري: النّظم الإسلامية ص١٣٥.
(٥) ابن آدم: الخراج ص٢٥.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٧٢.
(٧) اليعقوبي: البلدان ص٤٩.
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٩٦.
(٩) الطّبري: ج٢ ص٥٥٢.
(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٤، الطّبري ج٣ ص٥٥٢.
(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٤٧.
(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٠٦.
(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٣١٤.
(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢١.
(١٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٣٠.
(١٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٨٩.
(١٧) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٨٩.
(١٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٩٧.
(١٩) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٠٣، الطّبري ج٣ ص١٨٧.
(٢٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٠٠، الطّبري ج٣ ص٢٢٥.
(٢١) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٧٠.
(٢٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٧٣، الطّبري ج٣ ص١٨١.

حاجتها[1]، وكانت نهاوند من فتوح أهل الكوفة والدّينور من فتوح أهل البصرة فلما كثر المسلمون بالكوفة واحتاجوا إلى أن يزدادوا في النّواحي الّتي كان خراجها مقسوماً فيهم فصيرت لهم الدّينور وعوض أهل البصرة نهاوند لأنّها من أصبهان، فصار فضل ما بين خراج الدّينور ونهاوند لأهل الكوفة وسميت نهاوند (ماء البصرة) والدّينور (ماء الكوفة)[2].

وقد تغيرت الأحوال في العصر الأموي عندما أسلم قسم كبير من أهل الذّمة حيث أدّى إلى إعفائهم من الجزية، بالإضافة إلى اقتناء العرب للأراضي الخراجية ودفعهم العشر عنها بدل الخراج فضلاً عن حاجة الدّولة الماسة إلى المال للسيطرة على الوضع الدّاخلي وللانفاق على حاجات مجتمع حضري متطور ولتوسيع الجهاز الإداري وزيادة نفقات البلاط الأموي.

إنّ هذه الأسباب حدت بالحكومة إلى تعديل النّظام المالي الّذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب، فقد فرضت ضرائب جديدة كهدايا النّوروز والمهرجان، وهي ضرائب أعتاد أهالي المملكة السّاسانية تقديمها للملك على شكل هدايا في عيدي (النّوروز) أو الانقلاب الصّيفي (والمهرجان) أو الانقلاب الشّتوي وهي ضرائب ساسانية ألغاها الخليفة عمر بن الخطاب إلا أنّ معاوية أعادها وطالب أهل السّواد أن يهدوا إليه هدايا في هذين العيدين فبلغ مقدار هذه الهدايا (عشرة آلاف ألف درهم)[3] أي عشرة ملايين درهم في السّنة يضاف إليها واردات (الصّوافي)[4] الّتي بلغت وارداتها حوالي خمسين ألف ألف درهم من الكوفة وسوادها[5] وقد كان على خراج العراق لمعاوية في هذه الفترة مولاه عبد الله بن دراج.

وذكر اليعقوبي عن استقرار خراج العراق في عهد معاوية ولاسيما السّواد إذ بلغت وارداته (مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم)[6] أي حوالي مائة وعشرين مليون درهم.

كما اتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان إجراءات شاذة لمعالجة الأزمة فقد أمر عامله على الجزيرة (شمال العراق) الضّحاك بن عبد الرّحمن ابن الأشعري بإحصاء دخل الفرد السّنوي وطرح نفقته في طعامه وأدامه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السّنة كلها، فوجد أن الذّي يحصل بعد ذلك في السّنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم بهذا طبقة واحدة[7].

وظلت هدايا النّوروز هذه تجبى من النّاس حتى عهد عمر بن عبد العزيز فأبطل هذه الضّريبة، واتخذ تدابير تتعلق بالعراق عامة وبالكوفة خاصة حيث أوصى عامله على الكوفة فقال «لا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب، انظر الخراب فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتى يعمر، ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذنّ في الخراج وزن سبعة ليس لها أيين ولا أجور الضّرابين ولا هدايا النّوروز والمهرجان ولا ثمن الصّحف ولا دراهم النّكاح[8] ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض[9].

كما أن الأمويين أبقوا الجزية في بعض الأحيان على بعض الموالي بعد إسلامهم لاعتقادهم بأنهم أسلموا رغبة في التّخلص من الجزية لا حباً في الإسلام وكان الحجاج أوّل من حاول معالجة هذه المشكلة ووضع حلاًّلها بعد أن أخبره عماله أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذّمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار[10]. وقد وضع الحجاج سياسته المالية هذه مدفوعاً بمصلحة الخزينة وليس بمصلحة المسلمين «من العرب والموالي» كما فرض الخراج على العرب الذّين اقتنوا الأراضي الخراجية[11].

وقد وضع الحجاج الجزية على الموالي بعد إسلامهم كما كانت تؤخذ منهم وهم كفار[12]. وقد أراد الحجاج الزّيادة في الضّرائب فكتب إلى الخليفة عبد الملك «يستأذن في أخذ الفضل من أموال السّواد فمنعه الخليفة وكتب إليه لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابن لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً»[13].

وظل الوضع كذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز فوضع حلاً راعى فيه المبادئ الإسلامية العادلة من جهة وحفظ حقوق بيت المال من جهة أخرى، فأعفى الموالي بعد إسلامهم من الجزية وأبقى أرضهم خراجية.

وجاء في كتاب أرسله إلى عامله في الكوفة يطلب منه «أن لا خراج على من أسلم»[14]، وأوصاه أيضاً «من أسلم من أهل

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٠٣.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٠٣، ابن الفقيه: البلدان ص٢٥٩.
(٣) البعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٩٤، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٥.
(٤) الصّوافي: الأراضي الّتي كانت ملكاً لكسرى وأهله والّتي تركها أصحابها وهربوا.
(٥) أبو يوسف: الخراج ص٤٩، اليعقوبي: التّاريخ ٢٩ ص١٩٤.
(٦) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص٢٠٧.
(٧) أبو يوسف: الخراج ص٤٩.
(٨) كانت تؤخذ الجزية من البغايا، ابن سلام: الأموالص٤٧.
(٩) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٩٤، الجهشاوي: الوزراء والكتاب ص٢٤.
(١٠) الطّبري، جـ٨ ص٣٥.
(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٦٨، ولها وزن: الدّولة العربية وسقوطها ص٢٢٩.
(١٢) ابن الأثير: الكامل جـ٤ ص٧٦.
(١٣) الماوردي: الأحكام السّلطانية ص١٣٤.
(١٤) البلاذري: انساب الأشراف جـ٧ ص٤٠٥ (مخطوط)، ولها وزن: الدّولة وسقوطها ص٣٢١.

الأرض فله ما أسلم عليه من أهل أو مال، فأما داره وأرضه فانها كائنة في فيء الله عز وجل للمسلمين»[1].

ولكن سياسة عمر العادلة قد انتهت بوفاته، ورجع خلفاء بني أمية إلى وضعهم السّابق. فنرى في العراق أن عمر بن هبيرة قد زاد في جباية النّخيل والأشجار وأضر بالفلاحين كما أضر بأهل الخراج «وأعيدت السّخرة والهدايا التّي كانت تؤخذ في النّوروز والمهرجان»[2].

جباة المال:

لقد كانت الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاة والقواد للقيام بجباية الخراج وكانت تدفع منه حكومة الولاية أرزاق الجند ورواتب الموظفين وما تحتاجه الدّولة من خدمات عامة ثمَّ يرسل الباقي إلى بيت المال في (المدينة) ليصرفه فيما خصص له[3].

وقد كان لهؤلاء العمال صلاحيات واسعة في أغلب الأحيان في اتخاذ ما يرونه من الوسائل والأساليب لجبايتها، وقد اهتم الخلفاء أو الولاة باختيار الجباة من ذوي الكفاءة والأمانة والإخلاص في العمل. وقد ذكر أبو يوسف الصّفات التّي يجب توفرها فيمن يتولى جباية الخراج فقال «أن يكون والي ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرّأي عفيفاً لا يخاف في الله لومة لائم...ولا يخاف منه جور الحاكم أن حكم»[4]. وليس لهؤلاء العمال مدة معينة لخدمتهم تعين عند توظيفهم وإنما يعتمد بقاؤهم على رضا الوالي أو الأمير بصورة خاصة وإخلاصهم في عملهم.

وكان هؤلاء الموظفون أو العمال عادة من العرب، الذّين لديهم الكفاءة الخاصة للقيام بهذا العمل. وكانوا يراعون مراعاة خاصة في بعض الامتيازات التّي تمنح لهم. فقد زاد زياد ابن أبيه في رواتب هؤلاء الموظفين حتى لا يلجؤوا إلى الاختلاس[5].

كان بعض الولاة يفضلون استخدام الأعاجم في جباية الأموال لأنهم أبصر بالجباية من غيرهم كما أنه بإمكان الوالي أن يعاقبهم إذا أساءوا الاستغلال دون أن يخشى تدخل عشائرهم أو حقدهم على السّلطان.

قال عبيد الله بن زياد «كنت إذا استعملت العربي يكسر الخراج، فإذا أغرمت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه فوجدت الدّهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأوهن بالمطالبة منكم، مع أني جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً»[6] وكان زياد بن أبيه يرى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم.

كانت الإدارة المالية في الكوفة سيئة جداً فقد استعمل الجباة أساليب وحشية في جباية الأموال فكانوا يعذبون الأشخاص الذّين يتأخرون عن دفع الجزية[7].

كما أن سياسة الخلفاء والولاة لم تكن موحدة في كيفية جباة الخراج ومعاملة عماله فقد تساهل بعضهم في مراقبتهم وتغاضوا عنهم ترغيباً في إبقائهم على ولائهم للدّولة، فاستطاع عدد كبير منهم جمع ثروات طائلة.

وقد تشدد البعض الآخر مع هؤلاء المختلسين فكانوا يصادرون أموالهم كما فعل الحجاج بأموال بازاد مرد بن الهريد[8].

وأن قسماً منهم كان يعذب حتى الموت، وذكر اليعقوبي «إن هشام بن عبد الملك أمر خالد القسري والي الكوفة بمحاسبة عمر بن هبيرة عن ولايته للكوفة وتعذيبه حتى الموت. ولما زادت إيرادات خالد القسري أمر هشام يوسف بن عمر بعد أن تولى أمر الكوفة بمحاسبة خالد وتعذيبه حتى الموت»[9]. كما أمر الخليفة يزيد بن الوليد بمحاسبة يوسف ابن عمر وتعذيبه ثمَّ قتله[10]. وكان هؤلاء يعذبون في موضع خاص يسمى «دار الاستخراج» حيث كانت تستخدم فيه شتى أنواع العذاب[11].

الفصل الثاني
المصروفات

١- العطاء

٢- الرّزق

٣- رواتب الموظفين

٤- بيت المال

١- العطاء:

إن الجيوش العربية المقاتلة التّي تخرج إلى الفتح كان لا بد لها من المال اللازم لتستعين به على أمورها، فكانت الحكومة

(١) ابن آدم القرشي: الخراج ص٣٤.
(٢) اليعقوبي: التّاريخ جـ٣ ص٥٥.
(٣) حسن إبراهيم حسن: النّظم الإسلامية ص١٩٥.
(٤) أبو يوسف: الخراج ص١٢٧.
(٥) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص٢٧٩.
(٦) الطّبري، جـ٧ ص٢٩.
(٧) ابن سلام: الأموال ص٤٣.
(٨) المبرد: الكامل جـ١ ص٢٦١.
(٩) اليعقوبي: التّاريخ جـ٣ ص٦٣.
(١٠) الطّبري، جـ٩ ص٤.
(١١) الجاحظ: البيان والتّبين جـ٢ ص٣٨- ٣٩.

تخصص لهم مقداراً معيناً من المال يوزع على الجند في أوقات معينة من السّنة، وقد ميز الخليفة عمر بن الخطاب بين النّاس في العطاء عندما وضع الدّيوان على عدة أسس هي:

النّسب للرسول أولاً[1]، والسّابقة في الإسلام ثانياً ومقدار حاجة الفرد ثالثاً وقد خص عمر المقاتلة الأولى بالأفضلية في العطاء، كما راعى بقية النّاس في العطاء بصرف النّظر عن أصلهم وعشائرهم أو مكانتهم، ولهذا كان عطاء النّاس يختلف حسب أسبقيتهم في الإسلام، فمن أسلم قبل بدر كان عطاؤه أكبر ممن أسلم بعد بدر وهذا يأخذ عطاء أكثر ممن أسلم بعد الحديبية[2].

وهكذا، فقد أعطى لكل من المهاجرين والأنصار الذّين شهدوا بدراً (خمسة آلاف)[3] درهم ولكل من المهاجرين والأنصار الّذين لم يشهدوا بدراً (أربعة آلاف)[4] درهم ولكل من أزواج النبي (اثني عشر ألف درهم)[5].

أمّا في الكوفة فقد اتبعت أسس أخرى في تنظيم العطاء بأن فرض عمر بن الخطاب لمن «ولي الأيّام قبل القادسية كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثمّ فرض لأهل القادسية وأهل الشّام ألفين ألفين وفرض لمن بعد القادسية، واليرموك ألفاً ألفاً ثمّ فرض للروادف المثنى خمسمائة خمسمائة، ثمّ للروادف الثليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة سوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم وفرض للروادف الرّبيع مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم، وهم أهل هجر والعباد على مائتين... ونساء أهل القادسية مائتين مائتين، ثمّ سوى بين النّساء بعد ذلك وجعل الصّبيان سواء على مائة مائة»[6].

أمّا الحد الأدنى من العطاء فإنّه «فرض لأهل اليمن وقيس بالشّام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف وتسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة»[7].

أمّا اليعقوبي فيقول: «إنّ عمر بن الخطاب فرض لأهل اليمن في أربعمائة ولمصر ثلاثمائة ولربيعة مائتين»[8].

وقد أكد الطّبري أنّ عمر بن الخطاب أعطى اليمانيين والحميريين عطاء قليلاً وذلك لتأخرهم في الانضمام إلى الجيوش الإسلامية[9].

هذا وقد فرض عطاء خاصاً للأشخاص الّذين يبدون بسالة وشجاعة في المعارك إذ أخذوا عطاءً أكبر مما أخذ غيرهم وقال: «إنّ أهل البلاء يوم القادسية فضلوا عند العطاء بخمسمائة خمسمائة في أعطياتهم وكان عددهم خمسة وعشرون رجلاً أمّا أهل الأيّام فإنّه فرض لهم على ثلاثة آلاف فضلوا على أهل القادسية»[10]، يضاف إلى هذا أنّ الفارس في المعارك يأخذ عطاء أكثر من الرّاجل، وتكون عادة لفرسه سهمان وله سهم واحد أي يأخذ الفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد[11].

لم يقتصر العطاء في عهد عمر بن الخطاب على العرب فقط وإنّما شمل الموالي أيضاً فقد كتب عمر إلى أمراء الأجناد قائلاً: «ومن أعتقتم من الحمراء، فأسلموا فألحقوهم بمواليهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم في العطاء»[12]، أمّا من لا عشيرة له ولا من الموالي ففرض لهم ما بين مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة[13].

هذا وقد فرض عمر عطاء لأشراف الأعاجم أيضاً منهم فيروز بن يزدجرد دهقان نهر الملك ولخالد ولجميل ابني بصبري دهقان الفلوجة (وغيرهم من سبايا العراق) ألفي درهم[14].

وقد فرض لأهل الهجر والعباد مائتين[15]، وفرض للأساورة بعد إسلامهم فجعلوهم أسوة للعرب في العطاء ففرض ألفين ألفين (لمائة) منهم وألفين وخمسمائة لستة منهم[16].

ولم يقتصر العطاء هذا على الأحياء فقط وإنّما كان يعطى لورثة المتوفين منهم[17]، وقد ذكر البلاذري: «أنّ رجلاً مات في الحي بعد ثمانية أشهر مضت في السّنة فأعطاه عمر ثلثي

---

(١) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٣١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٣٧، أبو يوسف: الخراج ص٢٢.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٣٧، الطّبري ج٣ ص١٠٩، أبو يوسف: الخراج ص٥١.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٣٧، الطّبري ج٣ ص١٠٩، أبو يوسف: الخراج ص٥١.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٣٧، أبو يوسف: الخراج ص٥١.

(٦) الطّبري: ج٣ ص١٠٩- ١١٠.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥١.

(٨) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٣١.

(٩)

لما رأى الفاروق حسن بلائهم
وكان بما يأتي في الأمر أبصرا
فسن لهم ألفين فرضاً وقد رأى
ثلاثمئتين فرض عك وحميرا

الطّبري ج٣ ص١٨٦.

(١٠) الطّبري: ج٣ ص٧٢.

(١١) ابن آدم: الخراج ص١٨، أبو داود: السّنن ج٣ ص٧٥.

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٤٤، ابن سلام: الأموال ص٢٣٥.

(١٣) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة ج٣ ص٢١٢ قسم١.

(١٤) اليعقوبي: التّاريخ ٣٠ ص١٠٩.

(١٥) الطّبري: ج٣ ص١٠٩.

(١٦) الطّبري: ج٣ ص١٨٦.

(١٧) ابن سلام: الأموال ص٢٦٠.

عطائه»[1]، كما أنّ الخليفة عمر بن عبد العزيز كان إذا استوجب الرّجل عطاءه ثمّ مات، أعطاه ورثته[2]، ولم يقتصر العطاء على الرّجال وإنّما تعداهم إلى النّساء، فقد أعطيت نساء النّبي (اثني عشر ألفَ) درهم لكل واحدة منهن، أمّا نساء الّذين شهدوا بدراً فكان لكل واحدة منهن (خمسمائة)[3] درهم، ونساء المسلمين بعد الحديبية إلى الأيّام (ثلاثمائة)[4] درهم ونساء أهل القادسية (مائتي) درهم[5].

كما أنّ العطاء شمل الأطفال أيضاً فقد خصص لكل طفل دون السّابعة عشرة (مائة)[6] درهم في السّنة تؤخذ عند الفطام، لهذا نرى بعض النّاس أخذوا يفطمون أولادهم قبل الأوان ليحصلوا على العطاء مبكراً[7].

أشار أبو يوسف إلى مقدار العطاء الّذي فرضه عمر بن الخطاب للأطفال قائلاً: «كان المنفوس إذا طرحته أمّه مائة درهم فإذا ترعرع بلغ مائتي درهم فإذا بلغ زاده»[8]، أمّا اللقيط فقد فرض له (مائة) وفرض له رزقاً يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ثمّ ينقله من سنة إلى سنة وكان يوصي بهم خيراً، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال[9].

ولما تولى الخلافة علي بن أبي طالب(ع) ساوى في العطاء بين المسلمين والنّصارى والموالي الّذين كانوا قد انضموا إلى جيشه وحاربوا معه فلم يفضل أحداً على أحد وذكر اليعقوبي: «أنّ النّصارى الّذين قاتلوا مع علي في واقعة الجمل لم يميز بينهم وبين المسلمين في العطاء، وسئل عن ذلك فقال قرأت ما بين الدّفتين (يقصد القرآن) فلم أجد لولد إسماعيل على ولد اسحق فضل هذا، وأخذ عوداً من الأرض فوضعه بين أصبعيه»[10]، وزاد مائة درهم على عطاء الجند السّابق ليوم الجمل... وزاد الحسن بن علي الأعطيات مائة مائة عند توليته الخلافة[11].

إنّ هذا العطاء لم يكن ثابتاً وإنّما كان متغيراً بين الزّيادة والنّقصان تبعاً لواردات الدّولة أو زيادة عدد أصحاب العطاء أو بالنّسبة للعوامل السّياسية والأزمات الاقتصادية.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٤٧.
(٢) ابن سلام: الأموال ص٢٦١، الطّبري: ج٣ ص١١٠.
(٣) الطّبري: ج٣ ص١١٠.
(٤) الطّبري: نفس الجزء والصّفحة.
(٥) الطّبري: ج٣ ص١١٠.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٤٨، ابن سلام: الأموال ص٢٣٨.
(٧) ابن سلام: الأموال ص٢٣٧، ٢٤٠.
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٤٨، أبو يوسف: الخراج ص٥٥.
(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٤٨.
(١٠) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٦٠.
(١١) الأصفهاني: مقاتل الطّالبيين ص٣٦.

وعلى هذا فقد أنقص الحجاج العطاء عندما تدهور اقتصاد العراق وانكسر خراجه وقلت وارداته، ولملافاته هذه الأزمة بسبب سياسته الخرقاء أقدم على ذلك إذ لم تكف واردات الدّولة لسد نفقات العطاء.

فأنقص الحجاج عطاء أهل العراق بعد فشل ثورة مصعب بن الزّبير مائة درهم مما أدّى إلى ثورة عبد الله بن الجارود[12] احتجاجاً على هذا الإجراء كما انقص العطاء أيضاً عندما ثار ابن الأشعث وانضم إليه عدد ضخم من أهل الكوفة[13].

وقد أشار الأصفهاني إلى موقف سعيد بن العاص والي الكوفة من العطاء ولاسيما عطاء المرأة فقال: «كان سعيد قد بغضه أهل الكوفة لأمور منها أنّ عطاء النّساء بالكوفة كان مائتين فحطه سعيد إلى مائة»[14].

وقد أعطى عثمان[15] زيادة مائة درهم في العطاء لكل شخص عندما تولى الحكم، وقد زيد العطاء أيضاً عندما طمع بنو أمية بالملك واحتاج معاوية إلى من يساعده، فكان المال من جملة ما استخدمه في هذا السّبيل حيث أمر بزيادة (مائة درهم) لكل شخص عند توليته الحكم[16].

وكان معاوية كثيراً ما يأمر عماله بزيادة أعطيات أناس يعرف أنّهم لا يميلون إليه ولا يؤيدونه طمعاً في الحصول على ولائهم له فقد أمر النّعمان بن بشير واليه على الكوفة بزيادة عطاء أهل الكوفة الّذين لا يؤيدونه - فكان هؤلاء من أشد النّاس تعصباً لعلي- أنّ يزيد في أعطياتهم عشرة دنانير[17].

هذا وعندما أرسل يزيد جيشاً إلى الحجاز أمر أن يعطوا أعطياتهم كاملة ويعاون كل امرئ منهم (بمائة دينار)[18] وكذلك زاد الوليد الثّاني العطاء عشرة دنانير وأهل الشّام عشرين ديناراً[19]، كما أنّ المختار الثّقفي عندما استولى على الكوفة وجد في بيت المال (تسعة آلاف ألف) وزعها على جنده فأصاب كل واحد منهم خمسمائة درهم[20]، وقد أعطى مصعب بن الزّبير عطائين في السّنة لأهل البصرة[21]، إلا أنّ هذه الزّيادات في العطاء لم تبقَ دائمة وإنّما كانت عطاءات مؤقتة دفعت بمناسبة توليتهم الحكم أو لتثبيت سلطانهم.

(١٢) الطّبري: ج٧ ص٢١٤.
(١٣) المسعودي: مروج الذّهب ج٣ ص٦١.
(١٤) الأصفهاني: الأغاني ج١١ ص٢٩.
(١٥) الطّبري: ج٢ ص٣٠٧.
(١٦) البلاذري: أنساب الأشراف ج٤ ص١٥٧ ((مخطوط)).
(١٧) اليعقوبي: التّاريخ ج١ ص٢٠٧.
(١٨) البلاذري: أنساب الأشراف ج٤ ص٦ ((مخطوط)).
(١٩) الطّبري: ج٣ ص١٧٥.
(٢٠) الطّبري: ج٧ ص١٠٩.
(٢١) البلاذري: أنساب الأشراف ج٥ ص٢٧١.

لم يقتصر عطاء الأمويين على العرب وحدهم، وإنّما أعطوا الموالي وكان معاوية بن أبي سفيان أوّل من شملهم بالعطاء من بني أمية حيث أعطى لكل واحد منهم (خمسة عشر) درهماً ثمّ جعلها سليمان (خمسة وعشرين) درهماً ثمّ جعلها هشام (ثلاثين)[1] درهماً ولما جاء عمر بن عبد العزيز جعل الموالي والعرب في الرّزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء بعد أن وجد عشرين ألفاً منهم في العراق يغزون بلا عطاء ولا رزق[2].

وكان مقدار العطاء يتغير بالنّسبة لعدد المقاتلة الّذين يضافون إلى الدّيوان قال التّنوخي: «وكان يضاف إلى من في العطاء أشخاص آخرون حسب رغبة الخليفة أو الأمير»[3]، وكانت الأسباب العسكرية أهم هذه الأسباب الّتي تضطر إلى نقل عدد كبير من المقاتلين إلى مناطق معينة، قال البلاذري: «إنّ زياد بن أبية نقل أربعين ألفاً من مقاتلة العراق إلى خراسان»[4]، وأسكن الأشعث بن قيس من عرب الكوفة من أهل العطاء والدّيوان في أذربيجان عندما نقض أهلها عهد المسلمين[5] وقد أنقص العطاء في البصرة في عهد زياد بن أبية وقال البلاذري: «قال زياد لعرب البصرة إنّ عشائركم قد وردت علينا فاختاروا أن يأخذوا نصف أعطياتكم وأرزاقكم فتقويهم بها مما لهم عندنا، أو تكفينا كل عشيرة من فيها، فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه ورزقه»[6].

إنّ دفع العطاء في وقته المعين لم يكن متيسراً دائماً خاصة إذا لم يصل الخراج في وقته وفي هذه الحالة كان العطاء يدفع أقساطاً أو يؤجل دفعه عن وقته المعين، إنّ عدم استقرار العطاء كان له أثر كبير في اضطراب حياة النّاس وأحوالهم المعيشية ولهذا أخذ بعض الخلفاء والولاة يهتمون بدفع العطاء في وقته المحدد ويتخذونه وسيلة لكسب الجماهير وتأييدها فقد أعلن زياد بن أبيه عندما ولي العراق في خطبة له قائلاً «الأعطيات في أيامها»[7]. كما أن يزيد بن معاوية وعد أن يجمع العطاء ويدفعه دفعة واحدة بعد أن كان أبوه يدفعه ثلاثاً[8].

وكان العطاء يدفع سنوياً في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ويعطى في شهر المحرم عند بداية السّنة الهجرية، قال الطّبري «إن عمر بن الخطاب أمر (للمقاتلة) بمعاونتهم بالرّبيع من كل سنة وبإعطائهم في المحرم من كل سنة وبفيئهم عند طلوع الشّعرى في كل سنة وذلك عند إدراك الغلات»[9].

كما قال «إن مصعب بن الزّبير عندما فشل عمر بن عبيد الله عامل ابن الزّبير في رد خطر الخوارج قال «والله ما أدري ما الذّي أغنى عني أن وضعت عمر بن عبيد الله بفارس وجعلت معه جنداً أجري عليهم الأرزاق في كل شهر وأوفيهم أعطياتهم في كل سنة وآمر لهم من المعاون في كل سنة بمثل الأعطيات»[10]. وكان هذا العطاء يجري توزيعه على يد العرفاء حيث كان في الكوفة في أواخر العهد الأموي مائة عريف[11].

إن أكثر سكان الكوفة كانوا يعتمدون في معاشهم اعتمادا كلياً على العطاء الذّي تدفعه الدّولة لهم.

وفي مقابل الحصول على العطاء كانت الحكومة تشترط على الفرد سكن[12] المصر أو الكوفة وأن يلبي دعوتها في أوقات الحرب. أما إذا لم يفعل هذا فإن أسماءهم تمحى من سجل العطاء ويحرمون منه[13]. وكان يعفى من الجندية العجزة والمسنون والذّين بوسعهم إرسال بديلٍ عنهم[14].

أشرف العطاء:

لقد كان هناك نوع من العطاء يدعى (أشرف العطاء أو شرف العطاء) ويدفع هذا النّوع عادة لأهل الأيام وأهل السّابقة في الإسلام والذّين اشتركوا في الفتوحات الإسلامية الأولى تكريماً لهم لاشتراكهم في تلك الحروب الّتي أدت إلى ترسيخ أركان الإسلام وتثبيت دعائمه كما أن أشرف العطاء هذا كان يعطى للأشخاص الذّين يبدون شجاعة وبسالة فائقة في الحرب[15]. وقد ذكر البلاذري أن عمر بن الخطاب أمر عمرو بن العاص أن يفرض خارجة ابن حذافة في أشرف العطاء لشّجاعته[16].

ولما جاء الأمويون أضافوا إلى أشرف العطاء أشخاصاً كانوا يبدون الولاء والإخلاص لهم قال الجاحظ (عندما توفي عبد الملك بن مروان وجلس ابنه الوليد دخل عليه رجل بين المهنئين بتوليه الخلافة فبالغ له في التّهنئة، فقال له الوليد من أنت؟ فانتسب لَه. قال: في كم أنت؟ قال: في مائة دينار، فألحقه

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٤ ص٤٠٠.
(٢) الطّبري: ج٨ ص١٣٤.
(٣) التّنوخي: المستجاد ص٢٣٤.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٠٠.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢٤، الطّبري: ج٣ ص٣٠٧.
(٦) البلاذري: أنساب الأشراف ج٤ ص٢٦٠ ((مخطوط)).
(٧) ابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٥ ص٧.
(٨) الذّهبي: تاريخ الإسلام جـ٢ ص٢٦٧.
(٩) الطّبري جـ٢ ص١٤٧.
(١٠) الطّبري: جـ٧ ص١٦٣.
(١١) الطّبري: جـ٧ ص١٥٢.
(١٢) ابن سلام: الأموال ص٢١٢.
(١٣) الطّبري، جـ١ ص٢١٤.
(١٤) المبرد: الكامل جـ١ ص٣٣٥.
(١٥) الطّبري، جـ٣ ص٧٢، ٢١٨.
(١٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٤١.

في أهل الشّرف»[١].

وكان مقدار عطاء أهل الشّرف يتراوح بين ألفين[٢] وألفين وخمسمائة درهم[٣].

وكان أشرف العطاء هذا لا يورث لأحد، لذلك كان الخلفاء والأمراء يضيفون دائماً إلى أشرف العطاء أشخاص آخرين يحلون محل الأشخاص الذّين يتوفون.

قال البلاذري «إن أبا بكر بن محمد بن عمر بن حزم أمير المدينة من قبل عمر بن عبد العزيز كتب إليه أن قوماً من الأنصار قد بلغوا أسناناً ولم يبلغ عطاؤهم الشّرف، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإثباتهم في شرف العطاء فليفعل، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز الشّرف شرف الآخرة والسّلام»[٤].

ولقد كان على أهل العطاء أن يجهزوا أنفسهم بالأسلحة ويذهبوا للقتال ولم تكن الحكومة مسؤولة عن تجهيز المقاتلة بالسلاح كما هو الحال اليوم.

وقد جاء في فتوح البلدان عن تجهيز المقاتلة أنفسهم بالسّلاح «إن كثير ابن شهاب كان على الرّي ودسبتي، وقزوين..وكان إذا غزا أخذ كل أمريء ممن معه بترس ودرع وبيضة ومسلة وخمس إبر وخيوط كتان، وبمقص ومقراض ومخلاة والبيسه»[٥] ولم يقتصر أشرف العطاء على العرب وحدهم وإنما شمل قسماً من الموالي أيضاً، فقد أعطى أبو موسى الأشعري (لمائة وستة) أشخاص من الفرس أشرف العطاء بعد أن وافق الخليفة عمر بذلك فأعطى إلى (مائة شخص) منهم (ألفين) وأعطى ألفين وخمسمائة لستة آخرين[٦] منهم.

٢- الرزق:

لقد أضاف الخلفاء إلى العطاء الذّي كان يعطى للمقاتلة مقداراً معيناً من الحبوب توزع عليهم في كل شهر، وقد قرر عمر بن الخطاب أن يعطي لكل فرد من المقاتلة (جريبين)[٧] من الحنطة شهرياً رزقاً له، وقد قدر هذا المقدار من الرّزق بالنّسبة لحاجة الفرد اليومية، وكان يوزع أحياناً إلى جانب الحبوب الزّيت والخل، قال البلاذري «قال عمر بن الخطاب إني فرضت لكل نفس مسلمة في كل شهر مدي حنطة وقسطي زيت وقسطي خل»[٨] ولم يقتصر هذا الرّزق على المقاتلة فقط وإنما تعداهم إلى عامة النّاس[٩]. حتى شمل العبيد[١٠]. فاصبح لهم نصيب من الرّزق.كما أعطي المرضى والمساكين أيضاً وكان الوليد بن عبد الملك أول من أجرى على ذوي العاهات والمساكين والمجذومين الأرزاق[١١].

لم تكن كمية الرّزق هذه ثابتة في كل الظّروف والأحوال وإنما كانت تتغير تبعاً للأحوال السّياسية والظّروف الاقتصادية، فعندما تسود البلد الاضطرابات والفتن كان لا بد أن تقل واردات الأراضي الزّراعية لانصراف النّاس عن الزّراعة وانشغالهم بأمور السّياسة مما يؤدي إلى قلة الرّزق الذّي يوزع على النّاس وعلى العكس من ذلك فإن الرّزق يزداد في أوقات الرّخاء، وعلى هذا الأساس فإن مقدار الزّيادة والنّقصان خاضعة لظّروف البلد وخير دليل على ذلك ما حدث في زمن سعيد بن العاص في الكوفة في خلافة عثمان حيث أنقض الجريب وجعله خمسة أرطال ونصف بعد أن كان ثمانية أرطال[١٢]. وقد أثار هذا العمل موجة من الاستياء والتّذمر بين النّاس. وعندما جاء الحجاج وتولى أمر الكوفة أرجع وزن الجريب إلى ثمانية أرطال كما كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[١٣].

وقد كان أهل الكوفة في العصر الأموي يحرمون جمعياً من العطاء في ظروف سياسة معينة، أشار الأصفهاني إلى أن المغيرة بن شعبة حبس أرزاق أهل الكوفة لأنهم مركز المعارضة للخلافة الأموية[١٤].

وكان أهل الكوفة يتنازلون عن عطائهم هذا لأسباب خاصة ويعطونه لأشخاص معينين. ذكر البلاذري أن عامر بن مسعود أحد العمال الذّين تولوا أمر الكوفة في عهد ابن الزّبير طلب من أهل الكوفة أن يتنازلوا عن أرزاقهم شهراً حتى يستعين بثمنها على الزّواج[١٥] قائلاً «يا أهل الكوفة إني تزوجت امرأة من بني نصر بن معاوية فأعينوني بأرزاقكم شهراً، فقال قائل نعم فأخذ أرزاقهم كلها لشهر».

لم يكن عدد الأشخاص الذّين يأخذون العطاء ثابتاً لا يتغير وإنما كان عرضة للزّيادة والنّقصان. فكان يضاف إلى العطاء

(١) الجاحظ: البيان والتّبين جـ٢ ص٢٠٢.
(٢) الطّبري، جـ٣ ص١٨٦.
(٣) الطّبري، جـ٣ ص١٠٩.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٠٤-٤٤٥ (مخطوط).
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٣١٤.
(٦) الطّبري ج٣ ص١٨٢.
(٧) الجريب: (٣٦٠٠) ذراع مربع ويقصد به ماينبت في تلك المساحة. جرجي زيدان: التّمدن الإسلامي، ج١ ص١٥٧.
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٤٧، ابن سلام: الأموال ص٢٤٧.
(٩) الطّبري: ج٣ ص١١٠، البلاذري: فتوح البلدان ص٤٤٦.
(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٤٧، ابن سلام: الأموال ص٢٤٧.
(١١) اليعقوبي: التّاريخ ٣ ص٣٤. ١٦الكوفة
(١٢) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص٩٨.
(١٣) أبو يوسف: الخراج ص٣١.
(١٤) الأصفهاني: الأغاني ج١٦/٥ ص٢.
(١٥) البلاذري: أنساب الأشراف ج٥ ص١٩١.

عدد كبير ولاسيما في أوقات الأزمات الاقتصادية والمجاعات الشّديدة بعد أن كان هؤلاء لا رزق لهم.

قال اليعقوبي «لقد أصاب النّاس جدب وقحط ومجاعة شديدة في عام الرّماد سنة ١٨هـ.فأجرى عمر بن الخطاب الأقوات في تلك السّنة على عيالات قوم من المسلمين وأمر أن تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال[١]. وتوزع الأرزاق هذه عادة على مستحقيها شهرياً[٢].

يقول البلاذري: ما إن بلغ النّاس عاشوراء قط في أيام زياد إلا ويأخذون العطاء ولا رأينا الهلال إلا مشينا إلى دار الرّزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا[٣].

هذا خير ما يؤكد أن العطاء كان يدفع سنوياً في أوائل شهر محرم وتدفع الأرزاق في بداية كل شهر من أشهر السّنة وقد كان سكان الكوفة يأتون بأنفسهم إلى دار الرّزق لاستلام أرزاقهم بعد أن وقع التّلاعب في توزيعها.

لقد شكا النّاس إلى زياد نقصان المكاييل التّي يرزقون بها فدس من اتبع خدمتهم الذّين يتولون قبض أرزاقهم لهم فوجدوهم يشترون من أرزاقهم الطّير ويلعب به والحلواء فخطب النّاس قائلاً «إنكم تحملون علينا ذنب أنفسكم في أرزاقكم يبعث أحدكم خادمه يقبض رزقه فيشتري من رزقه ما اشتهى فتعهدوا وتولوا قبضها بأنفسكم»[٤].

وقد كانت هذه الأرزاق (الحنطة والشّعير) وغيرها تخزن عادة في دار خاصة بها تسمى (دار الرّزق) وقد بناها المسلمون لتكون أول أمرها مخزناً كبيراً لجمع غنائم الحروب[٥]. وأموال الصّدقات قبل توزيعها بين المقاتلة[٦]، وكانت هذه الدار تقع عند رأس جسر الكوفة وكثيراً ما كان أهالي الكوفة يعطون صكوكاً يأخذون بها أرزاقهم المخصصة لهم[٧].

٣- رواتب الموظفين:

لقد كان في الكوفة عدد كبير من العمال والموظفين يقومون بالأعمال الحكومية المختلفة لتّسيير أمور الدّولة. وكان هؤلاء العمال والموظفون يتقاضون رواتب معينة تختلف عن رواتب الجنود. وقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب بإعطائهم رواتب معينة تختلف عن رواتب الجنود بعد تدوين الدّواوين وتعيين أرزاق الجند، وتختلف هذه الرّواتب عادة باختلاف الوظيفة والعمل، وكانت رواتب الولاة والعمال والقضاة في قمة هذه الرّواتب وأعلاها، فقد خصص لعمار بن ياسر عند توليته الكوفة راتباً قدره (ستمائة) درهم في الشّهر[٨].

وخصص لعبد الله بن مسعود بعد توليه قضاء الكوفة في ولاية عمار بن ياسر (مائة درهم) في الشّهر وربع شاة في اليوم[٩]. كما أجرى عمر بن الخطاب لعثمان بن حنيف (خمسة دراهم) وربع شاة كل يوم عندما أرسله لمسح السّواد[١٠] (سواد العراق).

أما بنو أمية فقد نال عمالهم امتيازات كثيرة جداً منحت لهم ترغيباً في البقاء على ولائهم للبيت الأموي.

فكان زياد بن أبيه يأخذ (خمسة وعشرين ألف درهم) سنوياً[١١]. وكان يعطي لعماله ألف درهم[١٢].

هذا وقد ولى يوسف بن عمر أبا ليلى قضاء الكوفة وأجرى عليه (مائة وخمسون) درهماً في الشّهر وقيل (مئتي) درهم[١٣].

أما الموظفون الآخرون ولاسيما موظفو الدّواوين فكانت لهم رواتب مختلفة كل حسب منصبه، فكان رؤساء الكتاب مثلاً يتقاضون (ثلاثمائة) درهم في الشّهر[١٤]. وقد أعطى الحجاج بن يوسف ليزيد بن أبي مسلم في كل شهر ثلاثمائة درهم حيث قلده ديوان الرّسائل[١٥].

أما صغار الموظفين من الكتاب فيأخذون رواتب تتراوح بين العشرين درهماً والثلاثين والأربعين درهماً في الشّهر[١٦].

٤- بيت المال:

لعل أهم المؤسسات الحكومية في مدينة الكوفة (بيت المال) الذّي توضع فيه واردات المدينة من حصتها من الغنائم والجزية والخراج والصّدقات وغيرها وتعتبر هذه الواردات ملكاً مشتركاً للمسلمين في الكوفة تسجل بسجلات خاصة. ويشرف على بيت المال موظف مسؤول سمي صاحب بيت المال يشرف على ما يرد بيت المال من الأموال أو يخرج منه، ويوقع

(١) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٣٧، ١٣٨.
(٢) ابن سلام: الأموال، ص٢٤٧.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٤ ص٤٣٦ (مخطوط).
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٣ ص٤٢٢، ٤٢٣ (مخطوط).
(٥) البراقي: تاريخ الكوفة ص١٤٥.
(٦) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.
(٧) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٧٧.
(٨) البراقي: تاريخ الكوفة ص٢٣٩، جرجي زيدان: التّمدن الإسلامي جـ١ ص١٣٤.
(٩) نفس المصدر ص٢٤٠، نفس المصدر جـ١ ص١٣٤.
(١٠) نفس المصدر ص٢٤٠، نفس المصدر جـ١ ص١٣٤.
(١١) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص٢٠٩.
(١٢) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص٢٠٩.
(١٣) وكيع: أخبار القضاة جـ٣ ص١٣٠.
(١٤) الجهشاري: الوزراء والكتاب ص٢٦.
(١٥) نفس المصدر ص٢٦.
(١٦) نفس المصدر ص٧٩.

الموظف على جميع الصّكوك التّي تدخل أو تخرج من بيت المال لتكون نافذة المفعول[١].

ونظراً لأهمية هذا الدّيوان فقد بناه سعد ين أبي وقاص في الكوفة إلى جانب المسجد ودار الإمارة بعد أن نقب عليه وأخذ منه المال[٢].وكان أول من تولى أمر بيت المال في الكوفة عبد الله بن مسعود[٣].

وكان بيت المال هذا يقوم بواجبات مهمة لعامة المسلمين في الكوفة فكان يقرض النّاس الذّين تنزل بهم ضائقة مالية أو تشتد عليهم الأزمات فقلم بيت المال مقام البنك الزّراعي في الوقت الحاضر، فقد أقرض الحجاج الفلاحين من بيت المال مليوني درهم[٤].

وذكر الطّبري بأن (العرجي) كان غازياً فأصابت النّاس مجاعة فقال للتّجار أعطوا النّاس وعليَّ ما تعطون فلم يزل يعطيهم ويطعم النّاس حتى أخصبوا فبلغ ذلك عشرين ألف دينار فألزمها العرجي نفسه وبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز فقال بيت المال أحق بهذا فقضى التّجار ذلك من بيت المال[٥]. وإن بعض التّجار كانوا يقترضون منه بعض المبالغ ليشتروا بها بضائع في مقاطعة ما ثمَّ يدفعون ما اقترضوه إلى بيت مال مقاطعة أخرى، فقد اقترض عبد الله بن عمر من بيت مال البصرة في عهد أبي موسى الأشعري ما لا اشترى به بضاعة أخذها إلى الحجاز للمتاجرة بها ثمَّ دفع ما اقترضه إلى بيت مال الحجاز[٦]. وتسمى هذه العملية اليوم (بالمقاصة).

لم يكن الاقتراض من بيت المال هذا قاصراً على عامة المسلمين وإنما كان أمراء الكوفة نفسهم يقترضون منه أيضاً وذكر الطّبري أن سعد بن أبي وقاص عندما تولى الكوفة اقترض من عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال مقداراً من المال ليستعين به على قضاء حاجته[٧]. كما اقترض من بيت مال الكوفة الوليد بن معيط أميرها من عبد الله بن مسعود[٨].

وكان بيت مال الكوفة يقوم بواجبات اجتماعية كثيرة فكان يعطي الأشخاص الذّين يرغبون في الزّواج وليس لديّهم المال اللازم وذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرّحمن «أن أنظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه فكتب إليه إني قد زوجت كل من

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية جـ١ ص١٢٦، ١٢٧.
(٢) الطّبري، جـ٣ ص١٤٨.
(٣) الطّبري، جـ٣ ص٣١١.
(٤) ابن خرداذبه: المالك والممالك ص١٥.
(٥) الأصفهاني: الأغاني جـ١ ص١٥٢.
(٦) صالح العلي: التّنظيمات في البصرة ص٢٥٥.
(٧) الطّبري، جـ٣ ص٣١١.
(٨) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٥ ص٣٠.

وجدت»[٩].

وكانت هناك واجبات أخرى يقوم بها بيت المال في الكوفة فقد سك النّقود في زمن الحجاج بن يوسف كما أنه قام بتبديل القطع الممسوحة من النّقود. كما كان يتولى الإشراف على أموال من ليس له ولي من اليتامى[١٠].

أما واردات بيت المال هذه فتتكون من الخراج والجزية والصّدقة والعشور وغيرها وترسل هذه الواردات إلى بيت مال الحجاز بعد أن يأخذ المقاتلة عطاءهم وسد نفقات المصر ويجعل في بيت مال الكوفة مقدار من المال يستخدم في حالة الطّوارئ والنّوائب، وخير مثل على ذلك ما عمله زياد في البصرة فقد ذكر البلاذري «أن زياداً كان يجبي من كور البصرة ستين ألف ألف (ستون مليون) فيعطي المقاتلة من ذلك ستة وثلاثون ألف ألف، ويعطي الذّرية عشرة آلاف ألف وينفق نفقات السّلطان ألف ألف، ويجعل في بيت المال للبوائق والنّوائب ألفي ألف ويحمل إلى معاوية ثلثي الأربعة آلاف ألف لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة»[١١].

وعلى هذا فإن حصة بيت المال المركزي لا ترسل إلا بعد سد نفقات الكوفة وإعطاء الناس أعطياتهم. هذا وكان إرسال المال إلى بيت مال الخلافة في المدينة قبل إعطاء الأعطيات يسبب مشاكل كثيرة جداً ولذلك نرى الولاة يراعون هذه النّاحية مراعاة تامة، وليس أدل على ذلك من خطبة عبد الله بن مطيع أمير الكوفة فقال «إن أمير المؤمنين بعثني على مصركم وثغوركم وأمرني بجباية فيئكم ولا أحمل شيئاً مما يفضل عنكم إلا أن ترضوا عمل ذلك»[١٢].

الفصل الثالث
مستوى المعيشة في الكوفة

لقد عاش أهل الكوفة في رخاء دائم ورغد من العيش. حيث كثرت الأموال عندهم واقتنوا الضّياع الواسعة والاقطاعات الكبيرة[١٣]، وامتلكوا الدّور والقصور واقتنوا العبيد بأعداد كبيرة، وذكر الأصفهاني أن غلة طلحة كانت كل يوم ألفاً وافياً[١٤]، وأن طلحة بن عبيد باع أرضاً له بسبعمائة[١٥] ألف وملك ابن الزّبير ألف مملوك يؤدي الخراج[١٦]، ولما توفي

(٩) ابن سلام: الأموال ص٢٥١.
(١٠) ابن سلام: الأموال ص٤٥٠.
(١١) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٤ ص٤٣٦ (مخطوط).
(١٢) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٦ ص٣٣ (مخطوط).
(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٣.
(١٤) الأصفهاني: حلية الأولياء جـ١ ص٨٩.
(١٥) الأصفهاني: حلية الأولياء جـ١ ص٨٩.
(١٦) الأصفهاني: حلية الأولياء جـ١ ص٩٠.

خباب بن الأرت (وهو رجل من أهل الكوفة) ترك ثمانين ألف درهم[١].

يضاف إلى هذا أن خيرات السّواد كانت كثيرة جداً فقد زرعوا فيه كل ما يحتاجونه من مواد غذائية كالحنطة والشّعير وغيرها حتى أنها كانت أغنى مدن العراق، فعندما قامت ثورة ابن الأشعث كانت الكوفة مركزاً لتّموين الجيوش المقاتلة معه بالأطعمة وغيرها.

وقد ذكر الطّبري في معرض حديثه عن ثورة ابن الأشعث قال «إن أهل العراق تأتيهم مواردهم من الكوفة ومن سوادها فهم فيما شاؤوا خصبهم وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشّام في ضيق شديد قد غلت الأسعار وقلَّ عندهم الطّعام وفقدوا اللحم وكانوا كأنهم في حصار»[٢].

وقد وصف المقدسي الكوفة فقال: «هي كثيرة الخيرات حولها نخيل وبساتين ولهم حياض وقنى»[٣].

وعلى هذا الأساس لم تكن الكوفة من أغنى مدن العراق فحسب وإنما كانت مصدراً لرخاء العراق ومورداً كبيراً لثروته.

وعلى ضوء هذه الحياة التّي عاشها الكوفيون نستطيع أن نقدر أسعار الحاجات والسّلع التّي كانت تستهلك في ذلك العصر ونريد أن نسأل هل أثر ارتفاع مستوى المعيشة الذّي أشرنا إليه في أسعار السّلع بأسواق الكوفة؟

في الحقيقة من الصّعوبة بمكان أن نحيط بأسعار ما كان يباع فيها إحاطة تامة. وإنما نستطيع أن نعطي صورة تقريبية لهذه الأسعار على ضوء النّصوص القليلة التّي بين أيدينا. لقد كانت الدّولة توزع على سكان الكوفة بعض المواد الضّرورية كالحنطة والشّعير وغيرها[٤]. ولهذا خلت كتب التّاريخ من الإشارة إلى أسعار هذه المواد، ولم نجد إلا إشارة واحدة إلى أن العراق مر بأزمة اقتصادية لم يمر بمثلها من قبل أيام هشام ابن عبد الملك. قال المسعودي: «فقل الأفضال وانقطع الرّفد ولم ير زمان أصعب من زمانه»[٥] ولعل هذه الأزمة أدت إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية لفترة مؤقتة.

وإن كانت هذه الحالة لا تعطينا صورة واضحة عن أسعار هذه المواد، فقد كانت حالة طارئة وفي ظرف معين شاذ.

أمّا الملابس فلم يكن لها سعر ثابت وإنما اختلفت أسعارها تبعاً للمواد المصنوعة منه، فالملابس العادية كانت رخيصة جداً فنرى مثلاً أن علي بن أبي طالب اشترى قميصاً من أسواق الكوفة بثلاثة دراهم[٦] وأن حسن البصري لبس ثوباً بستة دراهم[٧]. واشترى عمر بن عبد العزيز ثوباً بستة عشر درهماً[٨]. وأن هناك قمصاناً أخرى كانت تتراوح أسعارها بين الثلاثين والأربعين درهماً[٩].

أما ملابس الطّبقة الأرستقراطية الفاخرة فهي غالية الثّمن بلا شك فنجد قميص الطّيلسان يبلغ سعره مائة درهم[١٠] والبرد اليماني يبلغ سعره مائة درهم[١١]. وسعر «الخف» تسعة دراهم[١٢].

أما الأسلحة فكانت وفيرة في أسواق الكوفة، وكانت أسعارها تختلف باختلاف نوع الحديد ومكان الصّنع وجودة الصّناعة.

وذكر أن شخصاً اشترى من أسواق الكوفة سيفاً بألف درهم[١٣].

أما أسعار الدّور وأثمانها فتختلف أيضاً بالنّسبة لسعتها وموقعها ومواد البناء التّي بنيت بها، فقد اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره في سوق الكوفة بتسعين ألف درهم[١٤].

أما أسعار الدّواب فإنها كانت تتوقف على نوعها وحجمها وعمرها ويمكن أن نعرف مستوى أسعارها من الدّية التّي حددها[١٥] عمر بألف دينار..أو أثنى عشر ألف درهم أو مائة من الإبل أو مائتين من البقر أو ألفين من الشّاة[١٦]. ومن هذا يبدو أن سعر البعير كان مائة وعشرون درهماً والبقرة ستون درهماً والشّاة ستة دراهم[١٧].

أما العبيد فإن أسعارهم كانت باختلاف اللون والجنس والسّن وبما يجيده من حرفة أو صناعة أو إجادته للشّعر أو الأدب أو غيرها[١٨].

وقد ذكر وكيع أن أحد العبيد بيع في الكوفة بألف

(١) الأصفهاني: حلية الأولياء جـ١ ص١٤٥.
(٢) الطّبري، جـ٨ ص١٧.
(٣) المقدسي: أحسن التّقاسيم ص١١٦.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤١٨ (مخطوط)
(٥) المسعودي: مروج الذّهب جـ٣ ص١٣٩.
(٦) الأصفهاني: حلية الأولياء جـ١ ص٨٣.
(٧) ابن قتيبة: عيون الأخبار ص٢٥١.
(٨) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٣٨ (مخطوط).
(٩) وكيع: أخبار القضاة جـ٣ ص١١٢.
(١٠) نفس المرجع والصّفحة.
(١١) ابن سعد: الطّبقات الكبيرة جـ٣ قسم ١ ص٣١.
(١٢) التّنوخي: المستجاد من فعلات الأجواد ص١٠٧.
(١٣) المبرد: الكامل جـ٣ ص٩٣٠.
(١٤) التّنوخي: المستجاد من فعلات الأجواد ص١٧.
(١٥) صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص١٥٤.
(١٦) ابن حنبل: المسند ص٣٢٧، أبو حنيفة: المساند جـ٣ ص١٧٩، صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص١٥٤.
(١٧) صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية في البصرة ص١٥٤.
(١٨) الأصفهاني: الأغاني جـ١ ص١٢٩.

وأربعمائة درهم[١]، واشترى شريح (قاضي الكوفة) عبدين بألف درهم وجارية من السّوق[٢] بتسعمائة درهم[٣].

وقد ذكر أن تحديد أسعار العبيد يمكن استنتاجه من الفدية التّي حددها عمر بن الخطاب لتّحرير المسترقين من العرب[٤].

لهذا نرجح أن ارتفاع مستوى المعيشة في الكوفة أدى إلى ارتفاع أسعار السّلع فيها عمّا غيرها من الأمصار الأخرى.

لهذا كانت الحكومة في الكوفة حريصة كل الحرص على التّدخل في بيع السّلع عاملة على تثبيت أسعارها حائلة دون ارتفاعها، وقد اتبعت الدّولة مبدأ حرية التّجارة فلم تقيد نقل السّلع بين مختلف مقاطعات الدّولة الإسلامية، ولم تحتكر تجارة أي بضاعة أو تمنع مبادلتها، ولا ريب أن هذه السّياسة أتاحت لبعض الأشخاص فرصة احتكار بعض السّلع غير أن احتكاراتهم كانت في الغالب محلية ومؤقتة وفردية لا تدعمها الحكومة لذلك لم يكن لها تأثير كبير في الأسعار، والحق أن النّاس كانوا ينظرون لمثل هذه الاحتكارات الفردية بشيء من النّفور والرّيبة لكثرة الأحاديث المروية عن الرّسول في ذم الاحتكارات[٥]. وقد اتخذت الدّولة بعض التّدابير والإجراءات التّي من شأنها أن تؤثر في تحديد الأسعار بطريقة غير مباشرة، فكانت مثلاً تجبى ضرائبها من الزّرع بالنّقد والعين وبهذا تخفف عن كاهل الفلاحين بعض الأعباء فلا يضطرون إلى بيعها بأسعار رخيصة لتّسديد الضّرائب وبما أن ضرائب الدّولة ثابتة فكان هذا يؤدي إلى ثبات الأسعار نسبياً. ثمَّ أن الدّولة كانت تدفع إلى المقاتلة وعيالاتهم مقداراً معيناً ثابتاً من العطاء كان من شأنه أن يحدد القوة الشّرائية لهؤلاء المقاتلة والعرب المستهلكين. كما أن الحكومة كانت توزع عليهم مجاناً القمح والشّعير مما ضيق مجال التّلاعب في أسعار المواد الضّرورية للمعيشة[٦].

إن الثّراء الفاحش والمال الوفير الذّي امتلكته الطّبقة الغنية في الكوفة والفراغ والشّباب الذّي توفر لهذه الطّبقة ليفسر لنا بعض الظّواهر الاجتماعية التّي أشرنا إليها، فقد أدى ذلك إلى أن تنزلق الارستقراطية في طريق اللهو والمجون بالصّورة التّي بيناها، ومن هنا ندرك كيف يستطيع المستوى الاقتصادي أن يؤثر في الحياة الاجتماعية تأثيراً واضحاً.

(١) وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٢٧٢.
(٢)وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٢٧٢.
(٣)وكيع: أخبار القضاة جـ٢ ص٢٣٣.
(٤) صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص١٥٦.
(٥)صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص١٥١.
(٦)صالح العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص١٥٢.

الباب الخامس
مدينة الكوفة والمجتمع العراقي

١- أثر الكوفيين في الحياة السّياسية.
٢- أثر الحركات السّياسية في الوضع الاجتماعي والاقتصادي.
٣- الحياة الأدبية في الكوفة.
٤- الصّلات بين الكوفة والأمصار الإسلامية الأخرى.

الفصل الأوّل
أثر الكوفة في الحياة السّياسية

تمهيد:

لم يكن من المعقول أن تنتهي هذه الدّراسة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية دون أن نبين الدّور الكبير الذّي لعبته الكوفة كمدينة ولعبه الكوفيون كشعب في حياة العراق في القرن الأوّل الهجري، فقد كانت هذه المدينة حاضرة العراق وقلبه النّابض تنطلق منها التّأثيرات السّياسية والاجتماعية والاقتصادية فتؤثر في العراق كله بل لقد امتد أثرها إلى العالم الإسلامي كله وقد تركت الأوضاع السّياسية في الكوفة خاصة وفي العراق عامة أثرها البارز في الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية.

الكوفيون والفتوحات:

كان مجتمع الكوفة في الحقيقة من أهم المجتمعات المدنية في تاريخ العرب وقد أثر في الحياة الإسلامية في العصر الأموي وتأثر بها، فمن قبيل هذا التّأثير ما قام به الكوفيون من دور هام في الفتوحات الإسلامية.

لقد قلنا سابقاً أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما أمر ببناء الكوفة مدينة للجيوش الإسلامية المقاتلة في العراق أرادها أن تكون «قيروانا يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار»[٧]. كما أرادها أيضاً أن تكون على طرف الصّحراء لا يفصل بينها وبين العاصمة نهر أو جسر[٨] لتكون على اتصال دائم مع العاصمة.

ولذلك بنيت الكوفة لتكون معسكراً تتجمع فيه الجيوش الإسلامية المقاتلة ومركزاً لتموين الجيوش وإمدادها بالمساعدات ولاسيما الجيوش المقاتلة في السّاحة الشّرقية، كما أنها كانت مركزاً لحماية ثغورها من الغارات التّي قد تشنها الجيوش الفارسية. ولهذا أصبحت الكوفة قاعدة عسكرية ضخمة لانطلاق الجيوش الإسلامية نحو الشّرق. وقد شهدت

(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٤، الطّبري جـ٣ ص١٤٥. ١٧-الكوفة
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٤، الطّبري جـ٣ ص١٤٥.

السّاحة الشّرقية للفتوحات الإسلامية معارك طاحنة وبطولات رائعة خاضها الكوفيون بكل بسالة وشجاعة وصبر وضربوا لنا مثلاً رائعاً في التّضحية والفداء في سبيل المبادئ والقيم الإنسانية والمثل العليا التّي نادى بها الإسلام.

لقد كان للكوفيين فضل كبير في فتح الأقاليم الشّرقية إذ قل أن تجد معركة من المعارك إلا وللكوفيين فيها النّصيب الأوفى والحظ الأكبر فضلاً عن أن أكثر المعارك في الشّرق اقتصرت عليهم وحدهم.

وفي خلافة عمر بن الخطاب كانت بداية انطلاق الكوفيين نحو الفتح في أطراف العراق وخارجه، فخرجت منها ثلاثة جيوش ذهب الجيش الأوّل منها بقيادة سهيل بن عدي لفتح (الرّقة) والجيش الثّاني قاده عبد الله بن عتبان لفتح (نصيبين) والجيش الثالث قاده الوليد بن عتبة لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ[1].

ولما أراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يفتح الأهواز طلب المساعدة من سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة فأمده بجيش من أهلها واستطاع الجيشان (من الكوفة والبصرة) أن يفتحا الأهواز. كما أرسل سعد بن أبي وقاص جيشاً من الكوفيين وحدهم لفتح رامهرمز والسّوس وتستر، وقد اشتركت الجيوش البصرية معهم في فتح (تستر) وفتح نهاوند[2] وقد أراد الخليفة عمر بن الخطاب أن يتوغل في أكثر من جهة في الشّرق بعد أن استطاع أن يفتح المدن والولايات الواقعة على أطراف العراق ولهذا طلب الخليفة من عامله على الكوفة (بعد أن تم لهم فتح نهاوند) عمار بن ياسر أن يرسل (عروة بن زيد الخيل الطّائي) إلى الرّي ودستبي في ثمانية آلاف[3].

هذا وقد فتحت قزوين وزنجان على يد الكوفيين عندما ولي المغيرة بن شعبة إمارة الكوفة[4]. كما غزا المغيرة بن شعبة اذربيجان من الكوفة سنة ٢٢ هجرية[5] وفتحها. وفي ولاية الوليد بن معيط في عهد عثمان غزا بأهل الكوفة الدّيلم[6]. ولما جاء سعيد بن العاص لإمارة الكوفة بعد (الوليد بن أبي معيط) غزا الدّيلم وقزوين فكانت ثغراً لأهل[7] الكوفة وغزا طبرستان[8] أيضاً. هذا وقيل أن سلمان بن ربيعة توجه إلى أرمينيا في خلافة عثمان بجيش من أهل الكوفة لإمداد حبيب بن مسلمة الفهري[9] وفي سنة ٣٢ هجرية توغل عبد الرّحمن بن ربيعة الباهلي في بلاد الخزر حتى وصل (بلنجر) وهي أكبر مدنهم ثم ذهبت فرقة من الكوفيين إلى جيلان وجرجان[10].

ولكن هذه المدن التّي خضعت للمسلمين ما لبثت أن نقضت العهد وثار قسم كبير منها، فما كان من جيوش الكوفيين إلا أن عادت إليهم مرة أخرى وأرغمتهم على الطّاعة والخضوع، وفي إمارة الوليد بن عتبة للكوفة انتفضت أذربيجان وامتنعت عن دفع ما كان قد صالحت عليه فغزاها الوليد بجيش من الكوفيين وأرغمها على أن تؤدي ما كانت قد صولحت عليه[11].

ووزعت حاميات من أهل الكوفة في بعض الأمصار لحمايتها وبسط نفوذ المسلمين عليها، فأسكن الأشعث بن قيس في أذربيجان أناساً من عرب الكوفة عندما نقضت عهد المسلمين[12]. وأنزل الأشعث جماعة من أهل العطاء والدّيوان من أهل الكوفة مدينة أردبيل[13].

ولم تقتصر بطولات أهل الكوفة على الشّرق وساحاته وإنما كان لهم مع الرّوم دورٌ كبيرٌ، فقد أرسل الخليفة عثمان إلى الوليد بن أبي معيط عامل الكوفة يومها يأمره أن يمد المسلمين في قتالهم مع الرّوم من أهل الكوفة[14]، فسيّر لهم جيشاً كبيراً بلغ ثمانية آلاف.

أما في عهد بني أمية، فكان الكوفيون سلاحاً ماضياً فتاكاً بيد الحكام الأمويين يرمون الثّوار بهم فسرعان ما كانت تخمد هذه الثّورات بقسوة وقوة بطشهم، وقد نقل زياد بن أبية خمسين ألفاً وعيالاتهم من أهل البصرة والكوفة إلى خراسان[15] موطن الثّورات ومركز المعارضة ضد الأمويون كما أراد تعريب خراسان بهم وجعل العناصر العربية غالبة.

ومن هذا نستنتج أنّ جيوش الكوفيين كانت الطّليعة الثّورية في سبيل نشر الإسلام في ربوع واسعة من العالم.

وعلى هذا قدر الخليفة عمر بن الخطاب جهاد الكوفيين في الفتوحات وتضحياتهم ودورهم الطّليعي، واعترافاً منه بالجميل والعرفان لهم قال: «الكوفة جمجمة الإسلام وكنز الإيمان وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء وأيم الله لينصرنّ الله

(١)ابن الأثير: الكامل جـ٢ ص٤١٤.
(٢)البلاذري: فتوح البلدان ص٣٠٠.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٣١٣.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٣١٧.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢٢.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٦١٨.
(٧) البلاذري: فتوح البلدان ص٣١٨.
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٣٠.
(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص١٩٨.
(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٣٠.
(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢٣.
(١٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢٤.
(١٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢٤.
(١٤) الطّبري، جـ٥ ص٤٦.
(١٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٠٠.

بأهلها في مشارق الأرض ومغاربها»[1] يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار[2].

الفصل الثّاني
أهل الكوفة وفتنة عثمان

قد يكون غريباً أن نذكر أن التّركيب الاجتماعي للكوفة حدد لها دورها في الحياة السّياسية، ذلك أن الهجرة إليها قد جلبت أناساً مختلفين فيما بينهم اختلافاً كبيراً في عقائدهم ومدنياتهم فمنهم البدوي والحضري ومنهم اليهودي والمسيحي ومنهم العربي والفارسي.

إن هذا الخلط بين النّاس أثر في أخلاق أهلها وعاداتهم وطبائعهم. وقد ظهر ذلك في وصف حذيفة بن اليمان لهم في خطاب له قائلاً «يا معشر أهل الكوفة أنكم أوّل ما مررتم بنا كنتم خيار النّاس فغيرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خلال أربع: بخل، وخب، وغدر، وضيق، ولم تكن فيكم واحدة منهن، فنظرت في ذلك فإذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتى. فإذا الخب من قبل النّبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضّيق من قبل الأهواز»[3].

وهذا الاختلاط أدى إلى تكوين مجتمع عجيب في قيمه وأخلاقه وصفاته، بل أدى هذا التّزاوج بين هذه الأهواء المتنافرة والصّفات المتناثرة إلى أن أصبحت مدينة الكوفة موطناً للشّغب ومسرحاً للفتن والاضطراب.

فوقف أهلها من الحكم- أياً كان الحكم- وقفة النّاقد المتربص يُحصي كل زلة وكل خطيئة مهما كانت صغيرة وتافهة، الأمر الذّي جعلهم يهزؤون بسياسة الولاة ولا يرضون عن أمير أو والي بل تجرؤوا عليهم واتهموهم بالضّعف تارة وبالفسق والفجور تارة أخرى، فقد اتهموا سعد بن أبي وقاص بأنه ضعيف لا يحسن الصّلاة لطيبته وتسامحه مع المسلمين، واتهموا المغيرة بن شعبة والوليد بن معيط بالفسق والفجور وشرب الخمر لموقفهما القوي الحازم من أهل الكوفة حتى أن عمر بن الخطاب وهو الحريص على وحدة العرب وقوتهم، غضب من أهل الكوفة غضباً شديداً وتبرّم بنفاقهم وشغبهم.

كتب أهل الكوفة إلى عمر عن سعد بن أبي وقاص يتهمونه بأنه لا يحسن الصّلاة فعزله[4].

وأشار اليعقوبي بأن «ولّى عمر بن الخطاب مكان سعد عمار بن ياسر، ثمَّ قدم أهل الكوفة فقال كيف خلفتم عمار بن ياسر أميركم، قالوا مسلم ضعيف!! فعزله، وولى مكانة المغيرة بن شعبة، فسألهم عن المغيرة فقالوا أنت أعلم به وبفسقه فقال ما لقيت منكم يا أهل الكوفة أن وليتكم مسلماً تقياً قلتم هو ضعيف، وإن وليتكم مجرماً قلتم هو فاسق»[5].

كما اتهموا عمار بن ياسر بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه[6]. وقد نال الوالي سعيد بن العاص من أهل الكوفة ما لم ينله أمير من قبل «فقد اعتدوا بالضّرب الشّديد على صاحب شرطته حتى غشي عليه وهو جالس في مجلس الأمير سعيد بن العاص»[7].

وقد تنبه سعيد بن العاص لهذا الخطر الدّاهم فكتب إلى عثمان يقول «إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشّرف منهم والبيوتات والسّابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذي شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها، فكتب إليه عثمان. أما بعد ففضل أهل السّابقة والقدمة ممن فتح الله عليك تلك البلاد وتبين من نزلها بسببهم تبعاً لهم.. وأحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق[8].

ولكن عثمان لم يكن مقدراً خطورة الحالة في الكوفة وإنما اعتبرها حالة عارضة ونزوة طارئة لا تلبث أن تزول، ولذلك أخفق في إيجاد العلاج اللازم لهذا الوضع الخطير، مما أدى إلى أن تستشري هذه الحالة حتى وصلت إلى حدود فاقت تصور عثمان وتخيلاته. ولم يقتصر نقد الكوفيين على الولاة وإظهار مثالبهم وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين أخذوا ينتقدون الخليفة عثمان نفسه ويحرضون أهل الأمصار بالثّورة عليه وعلى حكمه وأرسلوا الرّسائل والكتب إليهم يقولون لهم فيها «إن أردتم الجهاد فمكانه عندنا في المدينة وجاء الجواب من الكوفة أوّلاً»[9] فلم تلبث الأمصار أن اتبعتها وصارت الكوفة مركزاً لقيادة المقاتلة ضد الحكومة.

ولم يقف ثوار الكوفة عند هذا الحد وإنما قادوا حملة المقاومة هذه متوجهين إلى المدينة وتبعهم أهل البصرة وأهل مصر[10] متظاهرين (بالعمرة) وما أن وصلوا المدينة حتى أعلنوا أنهم يريدون مناقشة عثمان في سياسته وسياسة عماله الجائرة، وقد تنبه عثمان إلى شرر الثّورة المتطاير فوعدهم

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٦ ص١.
(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٨٧.
(٣) الطّبري، جـ٣ ص٢٢٠.
(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٧.
(٥) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٣٣.
(٦) الطّبري: جـ٤ ص٢٦٢.
(٧) الطّبري: جـ٣ ص٢٦١، ابن خلدون: التّاريخ جـ٢ ص٣٨٧، طه حسين: الفتنة الكبرى جـ١ ص١١٠.
(٨) الطّبري: جـ٥ ص٦٣.
(٩) ولها وزن: الدّولة العربية وسقوطها ص٤٢.
(١٠) ابن خلدون: التّاريخ جـ٢ ص٣٩٣.

خيراً وكتب لأهل الأمصار «أن قد رفع إليّ أهل المدينة أن عمالي وقع منهم إضرار بالنّاس، وقد أخذتهم بأن يوافوني في كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذ بحقه منه أو من عمالي»[1]. ولكن بطانة السّوء من أقربائه التّي استأثرت بالحكم كانت حجر عثرة في طريق الإصلاح فأفسدوا عليه الأمر حتى جعلوه ينكث ما وعد به، فمرت الأيام والشّهور دون أن يعزل عثمان عاملاً من أقربائه أو يحاسبهم.

وعلى هذا قرر ثوار الكوفة والأمصار الأخرى أن يتوجهوا إلى المدينة ولما وصلوا إليها حاصروا دار عثمان ثمَّ قتلوه على الرّغم من دفاع كثيرين من الصّحابة عنه ولاسيما علي بن أبي طالب وأبنائه.

الإمام علي وأهل الكوفة:

وقع الثّوار في حيرة من أمرهم بعد أن قتلوا الخليفة عثمان وكانوا يعلمون أن لا بد من إمام يبايع في أسرع وقت قبل أن يستبد ولاة عثمان ويستقلوا في الأمصار ويرسل معاوية بن أبي سفيان- أقوى ولاته- إلى المدينة جنده ليخضعها ويعاقب الثّائرين على ما قاموا به.

فعرض المهاجرون والأنصار يؤيدهم الثّوار على الإمام علي الإمامة، وألحّوا عليه في قبولها وهم يبايعونه كما بايعوا الخلفاء من قبله وحاول الإمام علي الامتناع فلم يستطع لكثرة إلحاحهم عليه. فجلس على منبر النّبي كما جلس الخلفاء الثلاثة من قبله وأخذ البيعة.

وقد حاول الإمام علي إزالة أسباب الفتنة التّي أدت إلى قتل الخليفة عثمان فعمل أوّل ما عمل على عزل عمال عثمان وولاته وكان معظمهم من أقاربه وعشيرته. ولم يقبل نصيحة ابن عباس ولا المغيرة بن شعبة في إقرار معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن النّاس وتستقيم الأمور ثمَّ يعزل منهم من يشاء وقال: «لا أداهن في ديني ولا أعطي الدنية في أمري» فقيل له اخلع من شئت واترك معاوية فإن في معاوية جرأة وهو في أهل الشّام يستمع منه وله حجة في إثباته بما كان من عمر بن الخطاب إذ قد ولاه الشّام وقال له لا استعمل معاوية يومين. وكان دينه يمنعه من ذلك لأنه كثيراً ما لام عثمان على توليته هؤلاء العمال، وكثيراً ما أنكر على هؤلاء العمال سياستهم في النّاس.

كان اختيار العمال على الأمصار أوّل ما فكر فيه الإمام علي بعد أن فرغ من بيعة أهل المدينة وبعثهم إلى أعمالهم بعد أن اختارهم اختياراً حسناً. وقد أقر الإمام على أبي موسى الأشعري على الكوفة. وقد رد معاوية العامل الذّي ولاه على الشّام. وقد بالغ علي في التّدقيق في محاسبة عماله وولاته حتى غضب أكثرهم وخسر نصرتهم ومنهم عبد الله بن عباس بعد أن كان من أكبر أنصاره. وجرت مكاتبات طويلة بين الإمام علي ومعاوية اتهم معاوية فيها علي بالتّحريض على مقتل عثمان وتصميمه على الأخذ بثأره منه.

لقد أرسل أهل الكوفة الرّسل يطلبون من الإمام علي القدوم إليهم وكان مالك الأشتر زعيم الكوفة رسولهم إليه يطالبه القدوم إلى الكوفة قائلاً: «يا أمير المؤمنين إنا والله لم نكن من المهاجرين والأنصار فإنا من التّابعين بالإحسان وأن القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه فليسوا بأولى مما شركناهم فيه وهذه بيعة عامة والخارج منها طاعن مستعتب فبعض هؤلاء الذّين يريدون التّخلف عنك باللسان فأبوا فأدبهم بالحبس»[2].

وعلى هذا قرر الإمام علي الذّهاب إلى الكوفة وعارضه أهل المدينة وأشاروا عليه بعدم الذّهاب إلى العراق فقال لهم: «إن الأموال والرّجال في العراق ولأهل الشّام وثبة أحب أن أكون قريباً منها»[3]. وجاء الإمام علي إلى الكوفة واتخذها عاصمة له ومركزاً لشيّعته وصارت مركزاً لمعارضة الحكم الأموي وبقيت على معارضتها لهم حتى زوال حكمهم.

وما كاد الأمام علي ينتقل إلى الكوفة حتى خرج عليه ثلاثة من كبار الصّحابة هم طلحة والزّبير اللذان أدعيا أنهما بايعا علياً على كره منهما وعائشة أم المؤمنين زوجة النّبي التّي كانت تكره علياً. وقاد الثلاثة تمردهم على علي في جزيرة العرب وراسلوا أهل البصرة في الانضمام إليهم في المطالبة بدم عثمان وكان لهم بها صنائع وأعوان ولأهلها حب لطّلحة وذهبوا إلى البصرة واستولوا عليها سنة ٣٦هـ فخرج إليهم علي من الكوفة، وقاد أعداداً غفيرة من الكوفيين وانتصر بهم على البصريين في معركة حاسمة عرفت «بواقعة الجمل» قرب البصرة في جمادى الثّانية سنة ٣٦هـ قتل فيها طلحة والزّبير وعقر جمل عائشة ثمّ أرجعها عليٌّ مكرمة معززة إلى مكة بصحبة أخيها محمّد بن أبي بكر وأربعَ عشرة امرأة من أهل البصرة، وأمّا الإمام علي فقد أخذ البيعة لنفسه من أهل البصرة وانتظم له أمر العراق والحرمين ومصر واليمن وخراسان وفارس.

كتب الإمام علي إلى معاوية – بعد أن استتب له أمر العراق- بالبيعة والطّاعة فأبى ذلك، وادعى أنّ عليّاً حرض على قتل الخليفة الشّرعي عثمان ولا زال يحمي الثّوار ولا يمكن الاعتراف به حتّى يسحق دعاة الفوضى، وعلى هذا أخذ معاوية

(١) ابن خلدون: التّاريخ جـ٢ ص٢٩١.

(٢) الدينوري: الأخبار الطّوال ص١٥٢.

(٣) الدينوري: الأخبار الطّوال ص١٥٢.

يحرض أهل الشّام على قتال علي بحكم أنّه ابن عم الخليفة المقتول الّذي يقع عليه عبء الثّأر دون سواه وقد علق معاوية قميص عثمان ملطخاً بالدّماء وأصابع زوجته نائلة على منبر مسجد دمشق فالتف حوله أهل الشّام وناصروه على الانتقام والأخذ بالثّأر وخرج بهم لملاقاة جيش علي الزّاحف نحوه ومعه أهل العراق وهم دون أهل الشّام طواعية للنظام وأقلهم ولاء وعطاء وثباتاً على العهد وأكثرهم غدراً وخذلاناً، وقد التقى الجيشان في سهل صفين غرب نهر الفرات سنة ٣٧هـ وجرت معارك عدة حامية قتل فيها الألوف من جيش معاوية وكاد علي أن ينتصر على معاوية، ولما أيقن معاوية أنّ النّصر بات عنه بعيداً لجأ إلى نصيحة عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسنة الرّماح للاحتكام إليها وعرف علي بالخديعة وطلب من جنده مواصلة القتال ولكنّ فريقاً منهم قد انخدع بهذه الخدعة ووافق علي أن يكون القرآن هو الحكم ونزولاً على إرادة الأكثرية من جنده قبل علي التّحكيم واختار أنصار علي أبا موسى الأشعري وكان يريد علي ابن عمه عبد الله بن عبّاس على حين اختار معاوية عمرو بن العاص وحدد نهاية شهر رمضان سنة ٣٧هـ موعداً للتحكيم «بدومة الجندل» ورجع معاوية بجنده إلى الشّام وعلي إلى الكوفة فدخلها بقسم من جنده أمّا الفريق الآخر فتخلف بظاهر الكوفة في مكان اسمه النّخيلة واعتزلوا عنه وسموا بالخوارج (لخروجهم على مبدأ التّحكيم) لأنّهم اعتبروا قبول التّحكيم معناه أنّ علياً شك في خلافته الّتي هي وديعة من الله.

وفي نهاية شهر رمضان سنة ٣٧هـ اجتمع الحكمان أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص «بدومة الجندل» واتفقا معاً على خلع علي ومعاوية وترك أمر الخلافة بين المسلمين، وخرجا إلى مكان الاجتماع لإعلان قرارهما على النّاس وصعد أبو موسى الأشعري المنبر وأعلن خلع علي ومعاوية ثمّ تبعه عمرو فأعلن خلع علي وتثبيت صاحبه معاوية، وحينئذ أدرك أبو موسى الأشعري غدر عمرو بن العاص.

ومما لا شك فيه أنّ هذا القرار أصلاً أكثر إجحافاً بعلي منه بمعاوية لأنّه أفقد علياً الخلافة ولم يفقد معاوية شيئاً كما أنّ هذا القرار زاد في فرقة المسلمين واختلافهم بإثارة الجدل والمناقشة من جديد فيمن يتولى الخلافة أو حول أحقية علي أو معاوية بالخلافة، وقد أدّت نتيجة التّحكيم إلى اعتزال عدد من المسلمين علياً والتحاقهم بالخوارج وكانوا يقولون «لا حكم إلا لله».

وعلى هذا فقد عزم الإمام علي على إعداد جيش قوي لمواجهة معاوية، وقد حاول قبل ذلك أن يوحد أهل العراق قبل ملاقاته معاوية ولكن سرعان ما ظهرت طبيعة الكوفيين فخذلوه وتقاعسوا عن نصرته، فحاول أن يجمع كلمتهم على شيء فلم يوفق حتّى ملّهم ويئس من إصلاحهم، وليس أدل على ذلك من قوله في خطبة له «أيّها النّاس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصّم الصّلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء... أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم»[١].

ثمّ يقول أيضاً: «لقد أصبحتم غرضاً تُرمَون ولا تَرمُون ويغار عليكم ولا تغيرون ويُعصى الله عزّ وجل منكم وترضون... يا أشباه الرّجال ولا رجال ويا حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال»[٢].

أمّا معاوية فكان أهل الشّام جميعاً في طاعته استطاع أن يخلق منهم جيشاً قوياً متماسكاً تحت قيادته يؤمن إيماناً عميقاً بسلامة قضيته، وأخذ معاوية يبعث الغارات على ولايات علي ولا يستطيع علي أن يرد هذه الغارات أو يعمل شيئاً ودانت لمعاوية أخيراً مكة والمدينة واليمن ثمّ مصر أخيراً وقد دانت الخلافة لمعاوية بعد أن اغتيل الإمام علي صباح يوم ١٧رمضان وهو يصلي الفجر سنة ٤٠هـ- ٦٠٥م على أثر ضربة مسمومة من عبد الرّحمن ملجم[٣].

الخوارج:

سرعان ما وجد الخوارج في طبيعة الكوفيين ما وافق هواهم بعد خذلانهم للإمام علي وتقاعسهم عن نصرته وكان أكثر الخوارج من عرب الجزيرة البدو الّذين استوطنوا الكوفة والبصرة بعد فتح العراق حيث لم تستطع الحياة المدنية أن تؤثر في طباعهم وأخلاقهم البدوية[٤]، وأهم هذه القبائل (بنو تميم، والأزد، وربيعة)، وهم الّذين لم يسلّموا يوماً بفضل قريش وبحقها في الخلافة.

ولقد انحاز هؤلاء الخوارج إلى حروراء في ناحية الكوفة بعد رجوع علي من صفين وكان عددهم حينذاك اثني عشر ألفاً، ولذا سمّوا بالحرورية، وكان زعيمهم شبث بن ربعي وعبد الله بن الكواء[٥].

وقد ناجزهم الإمام علي بن أبي طالب فاستأمن إليه ابن الكواء مع عشرة من الفرسان، وانحاز الباقون إلى النّهروان،

---

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١ ص١٥٢- ١٥٣.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة ج١ ص١٤١، المبرد: الكامل ج١ ص٢١، الجاحظ: البيان والتّبيين ج٢ ص٤٩.

(٣) الطّبري: ج٦ ص٨٤، المسعودي: التّنبيه والإشراف ص٢٥٧، اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٨٨.

(٤) Nichoison: Literary History of Arabs, p. ٢٠٨

(٥) الشّهرستان: الملل والنّحل ج١ ص١٢٤، البغدادي: الفرق بين الفرق ص٦٧.

وأمّروا عليهم عبد الله بن وهب الرّاسبي[1]، وقد قاتلهم علي بالنّهروان فتفرق منهم عدد إلى باقي الأقطار كعمان وكرمان واليمن وغيرها[2]، وقد كانت معركة النّهروان هذه بعيدة الأثر إذ أنّها زادت من سخطهم على السّلطان وزادتهم تمسكاً بإيمانهم، ولم ينتشر مذهب الخوارج بين عرب الكوفة وحدهم، بل انضم عدد كبير من موالي الكوفة إلى جيش الخوارج حيث كان جيش علي بن أبي طالب يضم عدداً ضخماً من موالي الكوفة فخرج منهم كثيرون وانضموا إلى الخوارج.

قال اليعقوبي: «وقد خرجت عصابة من موالي الكوفة وكان أميرهم أبو علي من أهل الكوفة وكانت أوّل خارجة خرجت من الموالي»[3].

وقد أكد المبرد وجود الموالي بجيش الخوارج بقوله: «عندما انشق بعض الخوارج على قطري بن الفجاءة انفصل إلى عبد ربه الصّغير – وهو من الموالي- أكثر من الشّطر وجلهم من الموالي والعجم، وكان هناك منهم ثمانية آلاف[4].

ومن العوامل الّتي أدّت إلى انضمام الموالي إلى الخوارج رغبتهم في التّخلص من الخراج، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك في حديثه عن خروج الخريت زعيم الخوارج وقتاله معقل بن قيس بقوله: «واجتمع على الخريت النّاجي علوج من أهل الأهواز كثير أرادوا كسر الخراج، ولصوص وطائفة أخرى من العرب ترى رأيه وطمع أهل الخراج في كسره فكسروه وأخرجوا سهل بن حنيفة من فارس وكان عاملاً لعلي عليها... وقد رتب الخريت أصحابه فجعل معه من العرب ميمنة، ومن معه من أهل البلد والعلوج ميسرة ومعهم الأكراد[5].

على أنّ بعض الموالي حاربوا الخوارج تحت لواء المهلب بن أبي صفرة[6] وكان أشهر من قاتل الخوارج من الموالي فيروز حصين ومواليه الّذين وقفوا إلى جانب المهلب بن أبي صفرة في الأهواز[7].

ولم يفتر نشاط الخوارج بالكوفة في العهد الأموي إنّما خلقوا مشكلة مستعصية حاولوا أن يحلوها بالموادعة واللين أوّلاً على يد المغيرة بن شعبة الّذي سار فيهم سيرة علي، فكان يقول: «قضى الله ألا تزالون مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون»[8] فتغاضى عن الكثير من أعمالهم واكتفى بالتّهديد والوعيد وقد وقف المغيرة في المسجد خطيباً بعد أن بلغه أنّ الخوارج يتآمرون عليه فقال: «إنني لا أود استعمال العنف ولا أريد أن يعصب الحليم التّقي بذنب السّفيه الجاهل، فكفوا أيّها النّاس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاد عوامكم وقد ذكر لي أنّ رجالاً منكم يريدون أن يظهروا في المصر بالشّقاق والخلاف وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلاّ أبدتهم وجعلتهم نكالاً لمن بعدهم»[9] ولكنه اضطر أخيراً أن يجهز لهم جيشاً بلغ ثلاثة آلاف[10]، وقد نكبهم في معارك عدة ولاسيما بعد أن وجد أنّ التّهديد والوعيد سلاحٌ لا يجدي.

ولما تولى زياد أمر العراق اشتد في أمر الخوارج فجعل يستقصي أمورهم ويتتبع أفرادهم أينما كانوا، وقد قتل زياد من الخوارج وحبس آلافاً كثيرة.

ولم يكن عبيد الله بن زياد أقل قسوة من أبيه في معاملة الخوارج، فقد نكل بهم أشد التّنكيل حتّى امتلأت بهم السّجون[11]، ولكن هذا لم يزدهم إلا إصراراً.

هذا ولما تولى الحجاج أمر العراق كانت مشكلة الخوارج الشّيء الوحيد الّذي أقلقه وشغله عن الفتوحات زمناً طويلاً، وقد جهز لهم جيشاً ضخماً بقيادة المهلب بن أبي صفرة وندب إليهم من أهل الكوفة وحثهم على القتال وعاقب كل من تقاعس منهم[12].

وقد استطاع الخوارج أن يهزموا عدة جيوش وجهها الحجاج إليهم، ولكنه استطاع أخيراً بقيادة المهلب أن يقضي عليهم قضاء تاماً في حروب دامت سنين طويلة.

انتشر التّشيّع في الكوفة حتّى أصبحت من أهم مراكز الدّعوة الشّيعية في العالم الإسلامي، وقد اتجه الشّيعة بعد قتل المختار إلى الدّعوة السّرية إذ لم تمكنهم الظّروف من المحاربة جهراً على حين غلبت الرّوح البدوية على الخوارج فناضلوا ضد الأمويين جهاراً على نحو ما رأينا، إذن فإنّ تحول الشّيعة في الكوفة إلى المقاومة السّرية كان أمراً محتوماً والتزموا بمبدأ التّقية الّذي يبيح إخفاء وكتمان ما تكنه الصّدور من العقائد، وأصبحوا بذلك أقدر الفرق الإسلامية على العمل في الخفاء، ونظمت الدّعوة السّرية تنظيماً دقيقاً ولم يخف على الأمويين ميل النّاس الواضح إلى عقيدة الشّيعة الّذي أفزعهم وأرق نومهم، فبعث هشام بن عبد الملك إلى واليه يوسف بن عمر يقول: «أمّا بعد فقد علمت بحال أهل الكوفة في حبهم أهل هذا

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق ص٦٧- ٦٨.
(٢) الشّهرستاني: الملل والنّحل ج١ ص١٢٥.
(٣) اليعقوبي: التّاريخ ج٢ ص١٩٧.
(٤) المبرد: الكامل ج٣ ص١١٥١.
(٥) ابن الأثير: الكامل ج٣ ص٧٠٩.
(٦) المبرد: الكامل ج٣ ص١٠٦٦- ١٠٧٨.
(٧) المبرد: الكامل ج٣ ص١١٠٣.
(٨) الطّبري: ج٦ ص١٠٠.
(٩) نفس المرجع ص١٠٥.
(١٠) نفس المرجع ص١٠٨.
(١١) المبرد: الكامل ج٣ ص١٠٠٤.
(١٢) المبرد: الكامل ج٣ ص١١٢٢.

البيت ووضعهم إيّاهم في غير مواضعهم لأنّهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم على ما هو كائن حتّى حملوهم من تفريق الجماعة على حال استخفوهم فيها إلى الخروج)[1].

وعلى هذا فقد صارت الكوفة معقلاً من أهم معاقل الثّورة ضد بني أمية طوال العصر الأموي.لذا عامل الولاة الأمويون هذه المدينة معاملة قاسية ظلت تئن تحت وطأتها أعواماً طويلة وقد استهل زياد ابن أبيه سياسة الإرهاب هذه فقتل وقطع الأيدي وبقر البطون على الظّن والشّبهة، قال البلاذري: «كان زياد أوّل من شدد أمر السّلطان وأكد الملك لمعاوية وألزم النّاس الطّاعة، وتقدم بالعقوبة وجرد السّيف وأخذ بالظّنة وعاقب على الشّبهة..وخافه النّاس في سلطانه خوفاً شديداً فقطع الأيدي وسمل العيون وصلبهم على جذوع النّخل»[2].

ثمَّ جاء عبيد الله بن زياد فلم يكن أقل قسوة من أبيه. وقد بلغت سياسة الإرهاب الذّروة في عهد الحجاج الذّي سام أهل الكوفة سوء العذاب وبدأ يستأصل المعارضة فرداً فرداً ولم تأخذه في ذلك رحمة ولا شفقة. فأشاع في المدينة جواً رهيباً من الخوف والفزع لم تشهده الكوفة من قبل حتى قيل أنّ عدد الأشخاص الذّين قتلهم الحجاج صبراً بلغوا مائة وثلاثين ألفاً.

ولقد تمثلت هذه السّياسة في انتقامه من أنصار بن الأشعث بعد فشل ثورته.

وكان من الطّبيعي أن يتخذ الدّعاة العباسيون الكوفة مركزاً لحركة المقاومة السّرية فنظموا أنصارهم على شكل خلايا سرية وأخذوا يخططون للثّورة على الأمويين. فكانوا يصدرون الأوامر والتّعليمات لأنصارهم في البلاد الإسلامية المختلفة وخاصة خراسان التّي كانت سند الثّورة المتين.

واتخذ أبو سلمة الخلال- زعيم الحركة- الكوفة مقراً لقيادته.

وظل قادة الحركة يبثون دعوتهم ويعبئون صفوف المناصرين لهم من أهل الكوفة والعراق وخراسان على الثّورة منتظرين ساعة الخلاص من الحكم الأموي الجائر. ولما سنحت الفرصة أعلنوها ثورة عارمة شملت أقاليم واسعة من الدّولة الإسلامية، فأعلنت الثّورة في خراسان في ٢٥رمضان سنة ١٢٩هـ بزعامة أبي مسلم الخراساني الذّي عرف كيف يستفيد من ثورات أهل خراسان على الأمويين وتذمرهم من سياستهم الجائرة، ومن الأسباب الّتي ساعدت أبا مسلم الخراساني على قيادة هذه الثّورة هي: وجود عناصر ناقمة على الحكم مجتمعة في منطقة خراسان بعيدة كل البعد عن الشّام مركز الخلافة، ووجود مجموعة كبيرة من الشّيعة الزّيدية فيها، يضاف هذا إلى وجود أعداد كبيرة من الموالي الّذين يقاسون سوء العذاب من الأمويين بالإضافة إلى الخلافات بين جند الأمويين العرب وبين القبائل اليمانية والقيسية فضلاً عن وجود الخراسانيين الأشداء الّذين وصفهم الإمام محمّد بن علي في إحدى خطبه لدعاة خراسان بقوله: «عليكم بخراسان فإنّ هناك العدد الكثير والجلد الظّاهر وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تقتسمها الأهواء ولم تتوزعها النّحل، ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة، وبعد فإنّي أتفاءل إلى المشرق، ولي مطلع سراج الدّنيا ومصباح الخلق»[3]، واتجهت جيوش خراسان إلى العراق بعد أن استولت على العاصمة مرو وعجز الوالي الأموي نصر بن سيار الدّفاع عنها، ودخلت الكوفة سنة ١٣١هـ وفرمنها العامل الأموي، وسلمت مقاليد الأمور إلى أبي سلمة الخلال وزير آل محمّد حتّى قدم أبو العبّاس السّفاح فدخل قصر الإمارة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة مائة واثنتين وثلاثين[4]، ثمّ خرج إلى المسجد واعتلى المنبر وألقى أوّل خطبة له ثبت فيها حق بني العبّاس في الخلافة فبايعه النّاس هناك.

الفصل الثّالث

أثر الحركات السّياسية في الوضع الاجتماعي والاقتصادي

تأثر المجتمع الكوفي اجتماعياً واقتصادياً بالحركات السّياسية والثّورات والفتن الّتي أشرنا إليها تأثراً كبيراً، فقد كانت الكوفة كما رأينا مركزاً تجارياً وصناعياً هاماً، وزراعياً أيضاً.

ومما لا شك فيه أنّ أوضاعها الاقتصادية قد تأثرت كثيراً بالثّورات والفتن كثورة الخوارج وثورة ابن الأشعث وغيرها، كما تأثرت بسياسة بعض الولاة الجائرة، فاضمحلت الزّراعة لإهمال الرّي وانشغال الفلاحين بالثّورات والفتن، كما تعطلت التّجارة وكسدت لفقدان الأمن والطمأنينة في البلاد وعدم السّيطرة على الطّرق التّجارية وغيرها.

فقد تولى الحجاج أمر الكوفة والحالة الاقتصادية مزدهرة، وليس أدل على ذلك من قول عبد الملك بن عمر الليثي: «بينما نحن بالمسجد الجامع بالكوفة وهم يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرّجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت

(١) الطّبري: ج٢ ص٢٦.

(٢) أنساب الأشراف جـ٤ ص٤٣٣، ٣٢٢ (مخطوط).

(٣) المسعودي: مروج الذّهب ج٣ ص١٨٣.

(٤) المسعودي: مروج الذّهب ج٣ ص١٨٥.

فقال هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق»[1]، وقد كان حكم الحجاج وبالاً على الكوفة، فقد عالج تمرد أهلها على السّلطان الأموي بقسوة متناهية، فلم يقنع بإخماد أصواتهم بالقوة بل أخذ يستأصل الخطر من جذوره، ولكن أهل الكوفة لم يذعنوا أو يستكينوا لوعوده فقاوموا حكم الحجاج بكل قوة فقامت الثّورات الدّاخلية والفتن نتيجة لسياسة البطش والإرهاب الّتي سار عليها.

ولما قامت ثورة ابن الأشعث قام لنصرتها عدد كبير من الموالي الّذين لاقوا كثيراً من ظلم الحجاج وقسوته، وقد أساء الحجاج إلى الوضع الاقتصادي أبلغ إساءة، فقد أمر بطرد الموالي الّذين اشتركوا في ثورة ابن الأشعث وحرم عليهم العودة إلى المدن وأجبرهم على الرّجوع إلى قراهم وظلّوا بعيدين عن الكوفة حتّى موت الحجاج فعادوا إليها في خلافة سليمان بن عبد الملك.

إنّ هؤلاء الموالي كان لهم النّصيب الأوفى في المجهود الصّناعي والزّراعي في الكوفة فلما عوملوا على هذا النّحو فقدت الصّناعة والزّراعة اليد العاملة النّشيطة الماهرة، كما عاقب الحجاج المحرضين على الثّورة من العرب بصورة رهيبة فهاجر كثير منهم وتفرقوا في الآفاق، وفرض الضّرائب الباهظة عليهم فناء تحت وطأتها الّذين بقوا في الكوفة جزاء لهم على تمردهم، وقد ذكر ابن خرداذبة الضّائقة الاقتصادية الّتي عانتها الكوفة في زمن الحجاج: «إنّ الخراج انحط عصر الحجاج انحطاطاً لا نظير له لعسفه وخرقه وظلمه»[2].

كما يضيف ابن عبد ربه إلى ذلك قوله: «إنّ عبد الملك بن مروان قال لعباد بن زياد... قدم الحجاج العراق فكسر الخراج وأفسد القلوب»[3]، كما أشار البلاذري إلى التّدهور المالي وانخفاض خراج العراق انخفاضاً كبيراً فقال: «وانكسر الخراج في أيّامه فلم يحمل كثير شيء ولم يحمل الحجاج في جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم» بينما كان الخراج في عهد عبيد الله بن زياد (مائة وخمسة وثلاثين) مليون درهم[4] حيث انخفض خراج السّواد إلى أربعين ألف ألف درهم أي حوالي أربعين مليون درهم[5].

وسبب ذلك أنّ مشاريع الرّي والزّراعة في العراق أهملت فأدّى ذلك إلى حدوث الفيضانات نتيجة لبثوق كثيرة لم يهتم الحجاج بسدها، وقيل إنّ عدم اهتمام الحجاج بذلك كان كرهاً للدهاقين لأنّه اتهمهم بالميل إلى ابن الأشعث حين خرج عليه[6].

ونتيجة لحدوث الفيضانات تكونت البطائح الشّاسعة الّتي غمرت مساحات كبيرة وواسعة من الأراضي الزّراعية الّتي كانت تزرع قبل ذلك وتغل محصولاً زراعياً وافراً، ومما يظهر لناسعة (البطائح)[7] الأراضي المغورة بالمياه ما ذكره البلاذري من أنّ الحجاج طلب من الوليد ثلاثة آلاف درهم لإصلاحها فاستكثرها الوليد[8].

كما تناقصت واردات الكوفة بسبب هجرة الفلاحين وأهل القرى اللذين تركوا قراهم وأراضيهم الزّراعية فحرمت هذه الأراضي من الأيدي العاملة، وقد وصلت مشاكل الهجرة إلى الذّروة في زمن الحجاج مما اضطر إلى إصدار أمر بإرجاع من كان له أصل في القرى إلى قراهم[9] وأمر أن يختم على يد كل منهم اسم قريته ليعاد إليها[10].

على أنّ هذا الإجراء لم يحل الأزمة الخانقة بل زادها تعقيداً، فاضطر الحجاج إلى السيطرة على الشّؤون المالية والإدارية فأمر بتعريب الدّواوين[11]، كي يستطيع أن يشرف على الشّؤون المالية والإدارية ومعاقبة المقصرين والمختلسين وقد صادر الحجاج أموال عدد كبير من الموظفين الّذين اختلسوا، ومن أخفى ماله كان يلقى أنواعاً بشعة من التّعذيب[12].

وقام الحجاج بتسليف الزّراع من بيت المال لتخفيف حدة الأزمة الّتي كانوا يعانونها، فأقرض الفلاحين مليوني درهم[13] من بيت المال، كما عمد إلى إنقاص العطاء للناس لملافاة هذه الأزمة الّتي أدّت إلى إنقاص واردات بيت المال، ولم يكتف بهذا بل أنقص عيار العملة[14]، كما فرض الجزية على الموالي بعد إسلامهم[15].

وخير ما يصور لنا ما نال أهل الكوفة من أذى في حياتهم الاقتصادية في عهد الحجاج من أنّ يزيد بن المهلب أبى أن يقبل ولاية العراق بعد الحجاج قائلاً: «إنّ العراق قد أخربها الحجاج

(١) المبرد: الكامل ج١ ص٣٣٣.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٥.
(٣) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٥ ص٨.
(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ج٧ ص٤٤٤ (مخطوط)، الماوردي: الأحكام السّلطانية ص١٦٧.
(٥) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٧٠.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٩١.
(٧) البطائح: أراضي زراعية غمرتها مياه الفيضان فكونت سطوح مائية واسعة تسمى الأهوار.
(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٩٢، قدامة بن جعفر: الخراج ص٢٤١.
(٩) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٦.
(١٠) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٤١٦، المبرد: الكامل ج٣ ص٤٥٠.
(١١) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٩٨.
(١٢) الجاحظ: البيان والتّبيين ج٢ ص٣٨.
(١٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٥.
(١٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٥٤.
(١٥) ابن الأثير: الكامل ج٤ ص٧٦.

وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمته وأخذت النّاس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج»[١].

وقد تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة والحالة الاقتصادية في الكوفة خاصة والعراق عامة متدهورة فأراد أن يعالج المشكلة فسمح للموالي بالعودة إلى المدن لكي تستعيد الحياة الاقتصادية سيرتها الأولى، ولكن الموالي عادوا إلى الكوفة بأخلاق غريبة وصدور انطوت على الحقد والكراهية، فلم يعملوا على إزالة هذه الأزمة الاقتصادية أو انفراجها وإنما أزادوا الأمر تعقيداً ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كان راغباً في الإصلاح فكتب إلى واليه على الكوفة يقول له «سلام عليك أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة جور في أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء..ولا تحمل خراباً على عامر وخذ منه ما أطاق واصلحة حتى يعمر ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذوا أجور الضّرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصّحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النّكاح، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض[٢].

ولم تستطع سياسة عمر بن عبد العزيز أن تصلح المجتمع الكوفي أو تنقذه من التّدهور الاقتصادي حيث كان هذا التّدهور أعمق مما تصوره الخليفة سليمان وعمر وسار الوضع من سيء إلى أسوأ، وظل أهل الكوفة يشكون من سوء الأحوال الاقتصادية زمناً طويلاً.

لم تكن سياسة الحجاج هي السّياسة الوحيدة التّي أساءت إلى الوضع الاقتصادي فكانت ثورة الخوارج من الثّورات التّي أضرت وأثرت على الوضع الاقتصادي تأثيراً بالغاً. فقد دفع تجار الكوفة مبالغ طائلة لتّجهيز الجيوش لمقاتلتهم وليس أدل على ذلك من قول المهلب بن أبي صفرة وهو يحرض أهل البصرة على حرب الخوارج «إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم»[٣] هذا وقد كثرت غارات الخوارج على الكوفة[٤] وسلبوا النّاس أموالهم الأمر الذّي جعل التّجار يحجمون عن جلب البضائع من الخارج كما تعرضت الأسواق[٥] والطّرق التّجارية هي الأخرى إلى النّهب والسّلب فأدى ذلك إلى عرقلة النّشاط التّجاري عرقلة تامة ورأس المال حساس سريع الفرار.

وقد أشار المبرد إلى ذلك بقوله «لقد قدم من خوارج البصرة إلى الكوفة، فلما خالطوا سوادها ووالیها الحرث بن عبد الله القباع فتثاقل عن الخروج وكان جباناً..والخوارج يعيثون[٦] فساداً.

وكان عبث الخوارج على هذا النّحو دعا المهلب بن أبي صفرة إلى أن يبعث إلى التّجار بعد أن وجد أن بيت المال عاجز عن تجهيز الجيش الذّي أعده لمحاربة الخوارج قائلاً «إن تجارتكم منذ حول قد كسدت عليكم بانقطاع موارد الأهواز وفارس فهلم فبايعوني واخرجوا معي أوفكم إن شاء الله حقوقكم فناصروه فأخذ من المال ما يصلح به عسكره»[٧].

ولهذا تعاون تجار الكوفة بصورة خاصة مع الدّولة تعاوناً كبيراً في سبيل القضاء على الخوارج فكان منهم عيونٌ للدّولة يترصدون حركاتهم وسكناتهم ويوافونها بأخبارهم. وقد أشار الطّبري إلى إن رسالة وصلت إلى عروة بن المغيرة وإلى الكوفة[٨] من أحد الدّهاقين قال فيها «أن تاجراً من تجار الأنبار من أهل بلادي أتاني فذكر أن شبيب (أمير الخوارج) يريد أن يدخل الكوفة في أوّل الشّهر»[٩].

لم تقتصر أضرار الخوارج على التّجارة وحدها، وإنما كان لغاراتهم المتكررة على سواد الكوفة أثرها الكبير في تدهورالزّراعة، فأدت هذه الغارات إلى هرب الفلاحين من القرى وهجرهم الأراضي الزّراعية التّي ظلت بدون زراعة كما أن هذه الغارات المتكررة على السّواد أدت إلى إهمال الحكومة والفلاحين لمشاريع الرّي فانفجرت البثوق وعجز النّاس عن سدها فانتشرت الفيضانات التّي غمرت مساحات واسعة من الأراضي الصّالحة للزّراعة وكونت المستنقعات[١٠] حول الكوفة التّي أثرت بدورها على صحة السّكان. وأن هذا كله أدى إلى قلة الواردات وبالتّالي كسر الخراج الذّي هو عمود الواردات، وليس أدل على ذلك من قول سعيد بن المجان حينما وقف خطيباً في أهل الكوفة يحرضهم على قتال الخوارج: «يا أهل الكوفة أنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتم عليكم أميركم أنتم في طلب هذه الأعاريب العجف منذ شهرين وهم قد خربوا بلادكم وكسروا خراجكم»[١١].

كما وقف الحجاج خطيباً في أهل الكوفة يطلب منهم الدّفاع عن أرضهم وبلدهم ومقاومة الخوارج فقال: «أيها النّاس والله لتقاتلُنَّ عن بلادكم وعن غيثكم»[١٢].

---

(١) الطّبري: ج٨ ص١١٣.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف جـ٧ ص٤٠٧ (مخطوط)، الطّبري جـ٨ ص١٣٩، ابن الأثير: الكامل جـ٣ ص١١١٣.

(٣) المبرد: الكامل جـ٣ ص١١١٣.

(٤) الطّبري، جـ٧ ص٣٤٩.

(٥) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٥٤.

(٦) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٩٠- ١٠٩١.

(٧) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٦٠.

(٨) كان قد ولاه الحجاج بعد أن خرج إلى البصرة لمحاربة الخوارج.

(٩) الطّبري، جـ٧ ص٢٣٣.

(١٠) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٩٢.

(١١) الطّبري، جـ٧ ص٢٢٩.

(١٢) الطّبري، جـ٧ ص٢٤٣.

هذا وقد استولى الخوارج على خراج الدّولة حيث قاموا بجبايته وصرفه على نفقاتهم وحاجاتهم الخاصة دون أن يعطوا للدّولة شيئاً منه. قال المبرد: «لقد طرد الخوارج عمال السّلطان عن الأراضي الزّراعية وجبوا الفيء»[1] وقد قام ابن الماحوز (وهو من الخوارج) يجبى كور الأهواز ثلاثة أشهر فضج النّاس إلى الأحنف بن قيس فأتى القباع فقال أصلح الله الأمير إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا فلم يبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزلاً»[2].

وقد خطب المهلب بن أبي صفرة في جيشه يحرضه على قتال الخوارج قائلاً: «أمثل هؤلاء يغلبونكم على غيثكم»[3].

كانت بيوت الأموال عرضة لنَهب الخوارج وسلبهم. فقد ثار الخريت ين راشد من الخوارج (زعيم بني ناجية في الكوفة) في ثلاثمائة من قومه في الكوفة[4] ثمَّ غادروها فجعلوا لا يمرون ببلد إلا انتهبوا بيت ماله حتى صاروا إلى سيف عمان[5]. ولم يقتصر ضرر الخوارج على التّجارة والزّراعة والخراج وإنما تعداها إلى أرواح النّاس فكان الخوارج يقتلون من يعترض طريقهم فضلاً عن أنهم كانوا يعترضون النّاس في الطّرق ويسلبون أموالهم وأمتعتهم حتى ضج النّاس في ذلك فشكوهم إلى الأحنف بن قيس أمير البصرة فجهز لهم جيشاً لمحاربتهم، أشار المبرد إلى ذلك قائلاً «وأقام نافع في الأهواز يعترض النّاس ويقتل الأطفال فإذا أجيب إلى المقالة جبى الخراج ونشر عماله في السّواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليه، وقالوا ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترى، فقال الأحنف إن فعلتهم في مصركم_إن ظفروا به- كفعلهم في سوادكم فجدوا في جهاد عدوكم فاجتمع إليه عشرة آلاف رجل»[6].

وقد انقلبت غالبية أهل الكوفة والبصرة على الخوارج آخر الأمر فاشتركوا في قتالهم رغبة في التّخلص منهم وحباً بأن يعم الأمن والاستقرار في ربوع العراق. قال المبرد: «وقد استعان بعض خلفاء بني أمية بأهل الكوفة على قتال الخوارج فقد أمر عبد الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان عندما كان والياً على الكوفة بأن يمد المهلب بن أبي صفرة بجيش من أهل الكوفة قوامه ثمانية آلاف رجل»[7].

(١) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٣١.
(٢) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٥٨.
(٣) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٦٢، ١٠٦٣.
(٤) الطّبري: الكامل جـ٦ ص٦٥.
(٥) اليعقوبي: التّاريخ جـ٢ ص١٧٠.
(٦) المبرد: الكامل جـ٣ ص١٠٤١، ١٠٤٢.
(٧) المبرد: الكامل جـ٣ ص١١١٥.

إن الحياة السّياسية المضطربة التّي عاشها الكوفيون خلال حكم الحجاج على الخصوص، انتهت بهم إلى تدهور الحياة الاقتصادية وجعلتهم يحيون حياة الفقر والعوز نتيجة للحروب المتواصلة والفتن المستمرة كل ذلك أدى إلى سخط أهل الكوفة وكرههم الشّديد للأمويين وحكمهم، وجعلهم يسارعون لاغتنام أي فرصة تنذر بتغيير الأحوال. فما أن بدأت الدّعوة العباسية في الكوفة حتى انضم إليها خلق كثير معتقدين أنها الطّريق الوحيد للخلاص من هذه الأوضاع السّيئة.

الفصل الرّابع
الحياة الأدبية في الكوفة

بعد أن عرضنا في إيجاز الحياة السّياسية وأثرها في الحياة الاقتصادية في الكوفة في الفترة التّي حددناها للدّراسة رأينا أن نعرض للحياة الأدبية والثّقافية التّي تأثرت إلى حد كبير بالحياة الاجتماعية والسّياسية.

والذّي لاشك فيه أن الكوفة في هذه الفترة كانت من أغنى البلدان الإسلامية من النّاحية الثّقافية، فكانت ملتقى التّيارات الحضارية، كالحضارة البابلية والأشورية والكلدانية والفارسية واليونانية[8]. فأصبحت بذلك مركزاً للإشعاع الفكري، ومما ساعد على ذلك موقعها الجغرافي حيث أنها بنيت على مقربة من الحيرة فتأثرت تبعاً لذلك بكثير من مقوماتها الثّقافية والفكرية والاجتماعية.

كما لعب الموالي دوراً كبيراً في مجتمع الكوفة في تطور الحياة الفكرية والعقلية وازدهارها حتى أننا نلاحظ أن معظم العلماء كانوا من الموالي حيث استطاعوا أن ينهضوا بالعلم نهضة واسعة، فهناك سعيد بن جبير[9] (مولى بني والية) الذّي قال فيه عبد الله بن عباس عندما أتاه أهل الكوفة يسألونه «لا تسألوني وفيكم ابن أم دهماء؟ يعني سعيد بن جبير»[10]، كذلك (الفراء) مولى بني أسد وحماد (الرّواية) مولى بني سعد وهو الّذي جمع المعلقات السّبع[11]، وأبو حنيفة الإمام الأعظم كان من الموالي أيضاً.

(٨) أحمد أمين: فجر الإسلام ص١٧٦.
(٩) لما قبض على سعيد بن جبير وكان قد خرج مع ابن الأشعث على الحجاج قال له الحجاج أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلاّ عربي فجعلتك إماماً؟ قال: بلى، قال: إنّما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا: لا يصلح القضاء إلاّ لعربي، فاستقضيت أبا بردة بن أبي موسى الأشعري وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك؟ قال: بلى، قال: أو ما جعلتك في سماري وكلّهم من رؤوس العرب؟ قال: بلى، قال: فما أخرجك على.
ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ٢ ص١١٥، ابن العماد: شذرات الذّهب جـ١ ص١٠٩.
(١٠) ابن سعد: الطّبقات الكبير جـ٦ ص١٧٩.
(١١) ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١ ص٤٤٨.

وثمة عامل آخر أدى بالكوفة إلى أن تصبح مكاناً علمياً وفكرياً ذلك أنّ الاضطراب السّياسي جعل الكوفة «ميداناً لاضطراب عقلي يتخذ من هذا الاضطراب السّياسي موضوعاً للجدل والمناقشة»[1] فأدت إلى ظهور مذاهب سياسية ودينية دار حولها الجدل المذهبي والخصومات العقلية مثل هل لعلي يد في قتل عثمان؟ وهل أصاب علي في التّحكيم؟[2] ومَن المخطئ ومَن المصيب؟[3] وغيرها من المناقشات الجدلية الّتي أثرت في الحياة، وعمقت التّفكير وشغلت الأذهان فترة طويلة من الزّمن، وعلى نحو ما تقاطر إلى البصرة والكوفة أهل المدن المجاورة في العراق والشّام وفارس من طلاب الرّزق فإنّهم أيضاً تقاطروا يطلبون العلم والمعرفة من موطنه في الكوفة بعد أن أصبحت الكوفة «بؤرة العلم والأدب وملتقى العلماء والأدباء والشّعراء يزدحمون في المسجد أو غيره للمفاخرة والمناظرة والمناشدة»[4].

وضربت الكوفة مثلاً بارزاً في شتّى مجالات الثّقافة ومختلف نواحي العلم والمعرفة، كما أخذت العلوم الدّينية مكان الصّدارة في الحياة الفكرية.

١- القرآن:

اهتم علماء الكوفة بالقرآن والحديث والتّشريع وغير ذلك من العلوم الدّينية، وصارت الكوفة مركزاً هاماً من مراكز قراءة القرآن وإقرائه وتفسيره، ويرجع الباحثون الفضل في ذلك إلى ابن مسعود الّذي يعتبر أستاذ مدرسة القراءة الأكبر في الكوفة بدون منازع، نظراً لاصطحابه الرّسول وملازمته إيّاه وأخذه القرآن كلّه عنه، وقد بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة ليعلمهم كما طلب عمر من أهل الكوفة أن يأخذوا عنه، هذا وقد التف حول ابن مسعود جماعات من الكوفيين كانوا التّلاميذ الأوّل لمدرسة القراءة بالكوفة فتعلموا عنه العلم وتأدبوا بآدابه، وبلغ عدد هؤلاء العلماء والقراء عدداً كبيراً، وكان ثلاثة من أئمة القراءات السّبع من الكوفة مثل (عاصم بن أبي النّجود) مولى بني جذيمة[5]، وعلي بن حمزة أبي حسن الكسائي الّذي انتهت إليه رئاسة الإقراء في الكوفة[6]، وأبي عمرو بن العلاء من تميم.

٢- الحديث:

كان للكوفة نصيب كبير في جمع الأحاديث وتدوينها، فكانت مركزاً رئيسياً لوضعه ونتيجة لظهور الشّيعة الّذين كانوا يحاولون تأييد مذهبهم وتقوية حججهم في المطالبة بالخلافة للبيت العلوي عن طريق جمع الحديث عن الرّسول.

وقد اشتهر من محدثي الكوفة الشّعبي[7] الّذي كان له باع طويلٌ في هذا الميدان.

٣- الفقه:

أسدت الكوفة للتشريع الإسلاميّ خدمات جلّى فقد كان قيامها في بيئة أجنبيّة متحضّرة تتصارع فيها تيارات لم تعرفها البيئة العربيّة الّتي ظهر فيها الإسلام حيث وسعت من دائرة الأبحاث الفقهيّة و جعلتها أكثر ملائمة لظروف الحياة الاجتماعيّة الجديدة الّتي لم يواجهها الإسلام في موطنة الأوّل[8].

وكان ابن مسعود هو الرّائد الأوّل لمدرسة التّشريع في الكوفة لتلمذته على يد عمر بن الخطّاب الّذي سار على طريقته في الاجتهاد واستعمال الرّأي حيث لا نص من كتاب ولا سنة، وتلقّى ابن مسعود التّشريع الإسلاميّ عن عمر وبالتّالي لقّنه لتلاميذه الكثيرين الّذين حملوا راية الإفتاء في الكوفة وتولّى القضاء فيها. ومن المعروف أنّ مدرسة التّشريع في الكوفة الّتي توّجت بأبي حنيفة هي مدرسة الرّأي في التّشريع الإسلاميّ وهي تقابل مدرسة الحديث الّتي ظهرت في الحجاز[9].

ومن العوامل الأخرى الّتي هيّأت لظهور مدرسة الرّأي في الكوفة دون غيرها من الأمصار الإسلاميّة الأخرى، أنّ العقليّة الكوفيّة تختلف اختلافاً كبيراً عن العقليّة المكيّة أو المدنيّة نظراً لما تتمتّع به الكوفة من حضارة ومدنيّة كبيرة، فالعقليّة الكوفيّة عقليّة متحضّرة مثقفة بثقافات متعدّدة في حين أنّ العقليّة المكّيّة أو المدنيّة عقليّة بدويّة انحصرت ثقافتها فيما كان بين أيديها من قرآن وحديث، وهذا من غير شكّ يجعل العقليّة الكوفيّة أكثر مرونة وأشدّ استجابة لعوامل التّطور وأقدر على التّكيّف والملاءمة مع ما يحيط بها من ظروف حضاريّة[10].

هذا فضلاً عن أنّ تعدّد الطّبقات في المجتمع الكوفيّ جعل فقهاء الكوفة يواجهون مشكلات من نوع جديد ممّا دفعهم أن يعتمدوا على عقلهم في سبيل استنباط أحكام لمثل تلك القضايا والمشكلات.

٤- علوم اللّغة:

لعبت الكوفة دورا هامّاً في الحياة اللّغويّة، إذ أنّها كانت أكثر اهتماماً وأوسع نشاطاً في رواية الشّعر والأخبار فوضع علماؤها مذهباً في النّحو يخالف مذهب البصريين وصنّفوا فيه

(١) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢١٠ (غير مطبوع).
(٢) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢١٠ (غير مطبوع).
(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام ص١٨٢.
(٤) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللّغة العربية جـ١ ص٢٤٠- ٢٤١.
(٥) ابن النّديم: الفهرست ص٤٣.
(٦) ابن النّديم: الفهرست ص٢٣٥.
(٧) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللّغة العربية جـ١ ص٢٤٧.
(٨) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢٩٤(غير مطبوع).
(٩) أحمد أمين: فجر الإسلام جـ١ ص٢٤١، ٢٤٣.
(١٠) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢٢٥(غير مطبوع).

كتباً كثيرة تتردّد أسماؤها في الكتب القديمة الّتي تتناول تاريخ النّحو العربيّ ورجاله بالدّراسة[١].

وقد شارك علماء اللّغة في الكوفة أمثال الكسائي والفراء وأبي عمر الشّيباني وابن الأعرابيّ في جمع اللّغة العربيّة وتدوينها وحفظها مشاركة كبيرة.

وقد اهتمّ العرب بالنّحو بعد انتشار اللّحن وخصوصاً في قراءة القرآن وعندها وجدوا أنّهم بحاجة شديدة إلى ضبط قواعد اللّغة ولاسيّما بعد اختلاط العرب بالأعاجم الّذي أدّى إلى إفساد اللّغة[٢].

وقد تجلّى الطّابع القوميّ العربيّ لدى علماء الكوفة في تشبّثهم باللّغة العربيّة والتّراث اللّغوي والأدبيّ للقبائل العربيّة القديمة حيث كانوا أكثر احتراماً لكل ما يروى عنها، وأشدّ إيماناً بأنّ كل ما نطقت به العرب صحيح وصالح لأن يستعمله النّاس ويقيسوا عليه[٣].

وظهر ذلك جليّاً فيما قام به أبو عمرو الشّيباني من جمع شعر القبائل العربيّة كل قبيلة على حدة في كتاب مستقل ويعتبر هذا العمل الّذي بذله الشّيباني (أهم عمل علميّ متكامل منظّم يستحقّ التّنويه به)[٤].

ظهرت في الكوفة أيضاً طائفة من الرّواة يروون الشّعر والأخبار وأيام العرب وأشهر هؤلاء الرّواة حمّاد الراوية[٥] والمفضّل الضّبّي، وتكونت في الكوفة ما يشبه مدرسة مستقلّة خاصة في الرّواية لها طابعها المميّز، وأسلوبها المنفرد ممّا جعلها تتفوّق على البصرة في هذا الميدان.

وليس معنى هذا أنّ الكوفة اقتصرت على نفسها مكتفية بما فيها من علماء وإنّما أخذ النّشاط الفكري و العقليّ صورة أخرى هي ما يمكن أن نسمّيها (الصّلات الثّقافيّة) المتبادلة بينها وبين الأمصار العراقيّة الأخرى وخاصّة البصرة فكانت ترسل الوفود التّعليميّة إليها وكانت تتلقّى طلاب العلم وعلماء اللّغة الّذين يفدون إليها لينهلوا من مورد الشّعر فيها فهي موطن روايته وجمعه، وقد أشارت المراجع إلى أنّ خلف الأحمر البصري كان يأتي الكوفة ليكتب من أهلها الشّعر وكذلك أبو نوّاس وابن المقفّع[٦] وثلاثتهم من البصرة. ويبدو أن من العوامل الّتي تشجع على هذا ما كانت تمتاز به الكوفة من بيئة طبيعية جميلة وحياة اجتماعية لاهية، بما فيها من دور غناء وشراب ومن لهو ومجون فضلاً عن أنها كانت تحيط بها أديرة كثيرة يباع فيها الخمر ويقدم للشّاربين[٧].

على كل حال كانت الحياة الفكرية والعقلية والفنية أشد ما تكون قوة وحيوية في القرن الأوّل الهجري، فقد أسهمت الكوفة مساهمة فعالة في كثير من جوانب العلم والفن، والكتابة والنّثر والشّعر والسّياسة والتّصوير والخلق والابتكار، مما جعل عندها مزية خاصة هي الابتداع في التّصوير في الأدوار الثّقافية العربية كافة[٨].

الفصل الخامس
الصّلات بين الكوفة والبصرة والأمصار الإسلامية الأخرى

لقد قطعت الكوفة شوطاً بعيداً في المدنية والحضارة وأصبحت مركزاً للإشعاع الفكري والحضاري تمد الأمصار بنور حضارتها وإشعاعات فكرها ولم تبق هذه الحضارة مقتصرة على مدينة الكوفة وحدها وإنما تجاوز أثرها أسوارها وانطلق في العراق كله بل غمر أمصاراً أخرى من العالم الإسلامي.

كانت الكوفة والبصرة هما المصران الوحيدان في العراق في ذلك الوقت فكان من الطّبيعي أن تكون بينهما علاقات متينة ومستمرة منذ تمصيرهما، فكانت الأحداث الّتي تحدث في الكوفة سرعان ما تجد صداها في البصرة وما عرف من شيء في البصرة إلا وعرف في الكوفة. وقد وجد عدد كبير من الكوفيين مقاماً، ومستقراً لهم في البصرة بعد أن هرب قسم كبير منهم لأسباب سياسية ولاسيما في زمن المختار الذّي أخذ يقتل قتلة الحسين فهرب إليها عدد كبير إلى هناك حيث تعاونوا مع مصعب بن الزّبير وشجعوه على الذّهاب إلى الكوفة وقتل المختار. كما أن اتساع التّجارة والرّغبة في الرّبح والكسب شجع قسماً كبيراً من أهل الكوفة على السّفر إلى البصرة والاشتغال بالتّجارة هناك، واتخذ عدد من البصريين الكوفة مدينة لهم ومقاماً لأنها عاصمة الدّولة الإسلامية ومركز الفقه والحديث واللغة وقراءة القرآن ورواية الشّعر والأدب.

وبالطبع انتقل العلم والمعرفة إلى البصرة بواسطة هؤلاء الذّين شدوا الرّحال من الكوفة وألقوا عصا التّرحال في البصرة واستقروا بها طلباً للتّجارة.

على أن البصرة سبقت الكوفة إلى الاستقرار والهدوء مما ساعد أهلها على الاشتغال بالعلوم والاستفادة من الثّقافات والعلوم الّتي انتقلت إليها مع العناصر الأجنبية الوافدة من

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص ٤٨.
(٢) الأصفهاني: الأغاني ج١٧ ص١٢٧.
(٣) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢١٣(غير مطبوع).
(٤) يوسف خليف حياة الشّعر في الكوفة ص٢٤٦(غير مطبوع).
(٥) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢٣٨(غير مطبوع).
(٦) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج١ ص٢٥١.
(٧) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢١٠ (غير مطبوع).
(٨) يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة ص٢٤٦ (غير مطبوع).

الفرس والهنود واليونان وغيرهم. في هذه البيئة المستقرة الهادئة بدأت بواكير العلوم. ولقد كان التّنافس بين هذين المصرين شديداً وقوياً جداً ومحتدماً من نواحي متعددة ففي النّاحية الحزبية والسّياسية تجد الكوفة علوية ومعارضة كل المعارضة للأمويين وحكمهم، كما كان الخلاف واضحاً من النّاحية العلمية، فأهل الكوفة أصحاب فقه وحديث وقراءة، وأهل البصرة أصحاب علوم وفلسفات لأنهم أكثر اختلاطاً بالأجانب من أهل الكوفة وأكثر حرية في اعتناق المذاهب المختلفة والأخذ بالثّقافات الوافدة، ولكن الكوفة كانت بعيدة كل البعد من الأخذ بالثّقافات الأجنبية لكثرة من فيها من الصّحابة والتّابعين والفقهاء.

كل هذه العوامل عمقت أسباب الخلاف والتّنافس بين المصرين وكان من نتائج هذا التّنافس أنهم كانوا يتناظرون في مجالس الخلفاء والأمراء.

وقد تناولت هذه المناظرات النّاحية الثّقافية، فكان التّنافس على أشده بين نحاة الكوفة ونحاة البصرة في عهد الكسائي وسيبويه وكان ذلك من الأسباب التّي أدت إلى ظهور مذهبين للإعراب منها المذهب الكوفي ومنها المذهب البصري. ولم يقتصر التّنافس هذا على النّحو فقط وإنما شمل النّواحي العلمية تقريباً وتعصب كل بلد لعلمائه تعصباً ظاهراً فالبصريون والكوفيون في الفقه والكوفيون والبصريون في المذاهب الدّينية وعلم الكلام والكوفيون والبصريون في الأدب[١].

أشار الجاحظ إلى عدد من المناظرات التّي جرت بين عامة النّاس في الكوفة والبصرة فقال «سئل خالد بن صفوان عن الكوفة والبصرة فقال نحن منابتنا قصب وأنهارنا عجب، وسماؤنا رطب وأرضنا ذهب، وقال الأحنف وهو من أهل الكوفة) نحن أبعد منكم سرية وأعظم منكم بحرية، وأغذى منكم بريه،وقال أبو بكر الهذلي (وهو بصرى) نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً وديباجاً وخراجاً ونهراً عجاجاً»[٢].

وقال محمد بن عطارد، إن الكوفة قد سفلت عن الشّام ووبائها وارتفعت عن البصرة وعمقها فهي مريئة مريعة عذبة ثرية، إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور وإذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السّواد وورده وياسمينه، وماؤنا عذب وعيشنا خصب[٣].

وقال الحجاج: الكوفة بكر حسناء والبصرة عجوز نجراء أوتيت من كل حلى وزينة[٤].

ولم تقتصر علاقة الكوفة الخارجية على مدينة البصرة وحدها وإنما تعدتها إلى مدن أخرى خارج العراق، فاتصلت بالحجاز، عاصمة الخلافة ومركزها السّياسي لأعوام طوال. وكانت التّجارة بين البلدين قوية ونشطة طوال العام، وكان التّجار ينشطون كثيراً في مواسم الحج حيث كانت كناسة الكوفة محطة تجارية مهمة تمركزت فيها الأعمال التّجارية التّي تتعلق بالحجاز.

واتصلت الكوفة بالشّام أيضاً، ولاسيما دمشق وكونت معها علاقات تجارية متينة، وكانت هذه العلاقات والاتصالات مستمرة طوال العام. وكان لنهر الفرات الأثر الكبير في استمرار هذا الاتصال فضلاً عن الطّرق التّجارية البرية التّي ساعدت على تقوية هذه العلاقة واستمرارها.

واتصل أهل الكوفة بمصر وكونوا معهم علاقات متينة. فقد شغل عدد من أهل الكوفة وظائف كبيرة في مصر، فولى محمد علي بن مسووق الكندي- وهو كوفي- القضاء في مصر[٥]. وأثر أهل الكوفة تأثيراً واضحاً في الثّقافة المصرية في ذلك العصر فكان أهل مصر يروون الحديث عن محدثي الكوفة[٦].

تقدم الفن المعماري في الكوفة تقدماً كبيراً ولاسيما في أيام زياد بن أبيه[٧].

وكانت مدينة بغداد أوّل مدينة عراقية تأثرت بالكوفة في نواح متعددة ولاسيما بالفن المعماري الكوفي فقد ساهم عدد غير قليل من الفنيين والمعماريين في بناء بغداد، وقد ذكر اليعقوبي «أن المنصور كتب إلى كل بلدة في حمل من فيه ممن يفهم شيئاً في البناء فحضره مائة ألف من أصناف المهن والصّناعات»[٨].

وأغلب الظّن أن من بين هؤلاء المعماريين والفنيين الذّين جاءوا إلى بغداد عدداً كبيراً من أهل الكوفة لما لهم من خبرة قديمة في فن البناء. كما صارت أسواق الكوفة نموذجاً وقدوة لأسواق بغداد[٩]. وإن (دار الرّزق) في الكوفة أصبحت نموذجاً لغيرها من المدن الأخرى حيث بنيت (دار الرّزق) في البصرة على غرار ما في الكوفة.

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، ص١٨١.

(٢) الجاحظ: البيان والتّبين ج٢ ص٩٠، ابن تيمية: عيون الأخبار ج١ ص٢١٧.

(٣) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج١ ص٢٢٠.
وقال ابن عياش لأبي بكر الهذلي يوماً فاخرة عند أبي العباس إنما الكوفة مثل اللهاة من البدن يأتيها الماء ببرودة وعذوبته والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيره وفساده.
ابن قتيبة: عيون الأخبار ج١ ص٢٢٠.

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج١ ص٢٢٠.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٢٤٥.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص٢٦٢ (٢٥٩) ٢٥٤.

(٧) Creswell,I.vol,p. ٣٣.

(٨) اليعقوبي: البلدان ص٢٣٨.

(٩) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.

ولما بنى المعتصم مدينة سامراء جلب من الكوفة صناع الزّيت لصناعة الدّهون والعطور[1]، كما جلب إليها صناع الخزف من الكوفة والبصرة[2]، ولم يقتصر تأثير الكوفة في مدن العراق على الفن المعماري والصّناعات وإنّما تعداها إلى أمور أخرى، فقد كان لصيارفة الكوفة فضل كبير في تقدم فن الصّيرفة في العراق بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة حيث تعلم يهود بغداد فن الصّيرفة عن صيارفة الكوفة وأتقنوه[3].

هذا ولم يقتصر تأثير الكوفة على العراق وحده في نواحي الحياة الحضارية وإنّما تعداها إلى أمصار متعددة كالشّام والحجاز ومصر.

فقد استعان معاوية بن أبي سفيان ببنائين من العراق في بناء منشآته في الشّام، كما استعان عبد الله بن الزّبير في تعمير وإعادة بناء الكعبة بمعماريين من العراق، وعندما بنيت (دار الرّزق) في الفسطاط كانت على غرار (دار الرّزق) في الكوفة[4].

وقد لعب الخطّ الكوفي دوراً كبيراً في نواحي الحياة الحضارية لعناية الكوفيين به عناية فائقة، فانتشر في سائر أنحاء العالم الإسلامي واستعمل في كتابات المصاحف وقطع النّقود وفي العمائر وشواهد القبور وسائر الكتابات التّذكارية وظل يستعمل الخطّ الكوفي حتّى القرن السّادس الهجري[5].

استعمل الخلفاء العبّاسيون في بغداد الخطّ الكوفي في مباني بغداد وسامراء وغيرها، كما استعمل في تزيين العمارات وزخارف البناء في شرق الأردن[6] ومصر[7].

لقد عاشت الكوفة عصرها الذّهبي خلال القرنين الأوّل والثّاني، وكان هذان القرنان يملآن مراحل النّشأة والتّطور والازدهار في تاريخ الحضارة الإسلامية في الكوفة، وهما اللذان شهدا أزهى مراحل حياتها الأدبية والعقلية والفنية.

ولما بنيت مدينة بغداد في منتصف القرن الثّاني تحول النّشاط الحضاري والعقلي والأدبي إليها فكان هذا إيذاناً بأفول نجم الكوفة وضعف شأنها وبداية انحدارها، وقد بلغ هذا الانحدار أشده في أوائل القرن الرّابع، حيث فقدت مركزها السّياسي وضعف شأنها وأصبحت مدينة للعلوم الدّينية ومركزاً للفقه والحديث.

(١) اليعقوبي: البلدان ص٢٦٤.
(٢) اليعقوبي: البلدان ص٢٦٤.
(٣) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٣.
(٤) ماسنيون: خطط الكوفة ص٢٢.
(٥) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٢٦.
(٦) زكي حسن: فنون الإسلام ص٤٥.
(٧) زكي حسن: فنون الإسلام ص٢٣٧.

المراجع العربية

المخطوطات:

١- البلاذري: أنساب الأشراف (١٢) جزءاً، مخطوط دار الكتب- الرّقم ٤٨٥٦.
٢- قدامة بن جعفر: الخراج (أ) النّسخة التّيمورية دار الكتب.
(ب) النّسخة التّركية- مكتبة كبرولي.
٣- صارم الدّين إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد: التّنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب، مكتب الأمبروزيانا- إيطاليا.

المطبوعات:

٤- ابن الأثير: عز الدّين علي بن محمّد (توفي ٦٣٠هـ).
٥- (أ) الكامل في التّاريخ (١٢) جزءاً، طبعة ليدن سنة ١٨٦٧م.
(ب) أسد الغابة في معرفة الصّحابة (٤) أجزاء القاهرة ١٣١٢هـ
٦- أحمد أمين:
(أ) فجر الإسلام، القاهرة ١٣٧٤هـ- ١٩٥٥م.
٧- (ب) ضحى الإسلام (٣) أجزاء القاهرة ١٩٢٨م.
٨- ابن آدم: يحيى (توفي ١٨٨هـ)، الخراج، القاهرة ١٣٤٨.
٩- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرّابع الهجري، جزءان- القاهرة ١٣٧٧هـ- ١٩٥٧م.
١٠- الأصطخري: أبو اسحق إبراهيم (توفي منتصف القرن الرّابع الهجري)، المسالك والممالك (تحقيق محمّد جابر عبد العال) القاهرة ١٩٦١م.
١١- الأصفهاني: علي بن الحسين (توفي ٣٥٦)
(أ) الأغاني (٢١) جزءاً، طبع محمّد السّاسي- القاهرة ١٣٢٢هـ
١٢- (ب) مقاتل الطّالبيين، طبعة النّجف ١٣٥٣هـ
١٣- الأصفهاني: أبو نعيم (توفي ٤٣٠هـ) حلية الأولياء (١٠) أجزاء القاهرة، ٣٥١هـ- ١٩٣٢م.
١٤- ابن أبي أصيبعة: (توفي في نهاية القرن السّابع الهجري) طبقات الأطباء (جزءان) القاهرة ١٨٨٤م.
١٥- الألوسي: محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (٣) أجزاء بغداد ١٣١٣هـ
١٦- انستاس الكرملي: النّقود العربية وعلم النّميات، بغداد ١٩٣٩م.
١٧- البراقي: حسين بن أحمد (توفي ١٣٣٢هـ)، تاريخ الكوفة، ط النّجف سنة ١٩٦٠م.

١٨- البغدادي: عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق، مصر ١٩٢٤م.

١٩- البكري: عبد الله بن العزيز (توفي ٤٨٧)، معجم ما استعجم (٤) أجزاء، ط ١٩٥١م.

٢٠- البلاذري: أحمد بن يحيى (توفي ٢٧٩).
(أ) فتوح البلدان، مصر ١٩٥٩م.

٢١- (ب) أنساب الأشراف: طبعة فلسطين (أورشليم) ١٩٣٦م.

٢٢- بنيامين: رحلة بنيامين (انظر تريتون، أهل الذّمة في الإسلام).

٢٣- البيروني: محمّد بن أحمد (توفي ٤٤٠هـ)، الجماهر في معرفة الجواهر، حيدر أباد ١٣٥٥هـ

٢٤- التّنوخي: أبو علي المحسن بن علي (توفي ٣٨٤)، المستجاد من فعلات الأجواد (تحقيق ونشر كرد علي) دمشق- ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.

٢٥- تريتون: أهل الذّمة في الإسلام (ترجمة حسن الحبشي) مصر ١٩٤٩م.

٢٦- الثّعالبي: أبي منصور عبد الملك بن محمّد النّيسابوري (توفي ٤٢٩هـ)
(أ) يتيمة الدهر، (٤) أجزاء.

٢٧- (ب) فقه اللغة، مصر ١٣١٨هـ

٢٨- الجاحظ: عمر بن بحر (توفي ٢٥٥هـ).
(أ) البيان والتّبيين (٣) أجزاء، القاهرة (١٣٦٦هـ- ١٩٤٧م).

٢٩- (ب) التّاج في أخلاق الملوك (تحقيق أحمد زكي) القاهرة ٣٢٢هـ- ١٩١٤م.

٣٠- (جـ) التّبصر بالتّجارة (اعتناء حسني عبد الوهاب التّونسي) مصر ١٩٣٥م.

٣١- (د) البخلاء- تحقيق (طه الحاجر) مصر ١٩٥٨م.

٣٢- (هـ) ثلاث رسائل، ط القاهرة ١٣٤٤هـ

٣٣- ابن جبير: أبو الحسين محمّد بن أحمد (توفي ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، بغداد ١٣٥٦هـ- ١٩٣٧م.

٣٤- جرجي زيدان:
(أ) التّمدن الإسلامي (٤) أجزاء طبعة الهلال.

٣٥- (ب) تاريخ آداب اللغة العربية (٤) أجزاء ط الهلال- ١٩٥٧م.

٣٦- الجهشاري: محمّد بن عبدوس (توفي القرن الرّابع)، الوزراء والكتاب، ط أولى، مصر ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨م.

٣٧- ابن أبي الحديد: محمّد بن أبي أحمد الحسيني (توفي ٤٠٤)، شرح نهج البلاغة (٢٠) جزءاً مصر (مطبعة دار الكتب العربية الكبرى).

٣٨- ابن حزم: أبو محمّد علي بن أحمد (توفي ٤٥٦هـ)، (أ) الفصل في الملل والأهواء والنّحل (٤) أجزاء ط أولى مصر ١٣٤٧هـ

٣٩- (ب) جمهرة أنساب العرب (نشر وتحقيق بروفنسال) ١٩٤٨م.

٤٠- حسن إبراهيم حسن:
(أ) النّظم الإسلامية- القاهرة ١٩٥٩م.

٤١- (ب) تاريخ الإسلام السّياسي (٣) أجزاء طبعة ١٩٤٥- ١٩٤٦م.

٤٢- ابن حنبل: أحمد بن محمّد (توفي ٢٤١هـ)، المسند (٦) أجزاء القاهرة ١٣١٣هـ

٤٣- أبو حنيفة: النّعمان بن ثابت (توفي ١٥٠هـ)، جامع المساند، جزءان حيدر أباد ١٣٣٢هـ

٤٤- ابن حوقل: محمّد (توفي القرن الخامس الهجري)، المسالك والممالك- ليدن ١٨٧٢م.

٤٥- الخربوطلي: علي حسني، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي- مصر ١٩٥٩م.

٤٦- ابن خرداذبة: (توفي حوالي ٣٠٠هـ)، المسالك والممالك، ليدن ١٨٨٩م.

٤٧- ابن خلدون: عبد الرّحمن بن محمّد (توفي ٨٠٨هـ)، (أ) مقدمة ابن خلدون، المطبعة البهية المصرية.

٤٨- (ب) العبر وديوان المبدأ والخبر (٧) أجزاء ٣٥٥هـ- ١٩٣٦م.

٤٩- ابن خلكان: شمس الدّين أبو العبّاس (توفي ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان (٦) أجزاء، القاهرة، الطّبعة الأولى ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م.

٥٠- أبو داود: سليمان (توفي ٢٧٥هـ)، السّنن (تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد) (٤) أجزاء القاهرة ١٣٥٤هـ- ١٩٣٥م.

٥١- الدّميري: كمال الدّين (توفي ٨٠٨هـ)، حياة الحيوان، جزءان بولاق ١٢٨٤هـ

٥٢- الدّوري: عبد العزيز:
(أ) تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرّابع الهجري، مطبعة المعارف- بغداد ١٩٤٨م.

٥٣- (ب) النّظم الإسلامية، ط أولى- بغداد ١٩٥٠م.

٥٤- ديمومبين: النّظم الإسلامية (ترجمة الشّماع وفيصل السّامر) ط بغداد- ١٩٥٣م.

٥٥- ديماند: الفنون الإسلامية (ترجمة أحمد محمد عيسى).

٥٦- الدّينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (توفي ٢٨٢هـ)، الأخبار الطّوال، ليدن ١٨٨٨م.

٥٧- الذّهبي: شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان- (توفي ٧٤٨هـ)، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (٤) أجزاء القاهرة ١٣٦٨م.

٥٨- ابن رستة: أحمد بن عمر (توفي أوائل القرن الرّابع الهجري) الأعلاق النّفيسة- ليدن ١٨٩١م.

٥٩- زكي محمّد حسن:
(أ) فنون الإسلام ط أوّل ١٩٤٨م.

٦٠- (ب) أطلس الفنون الزّخرفية والتّصاوير الإسلامية، من مطبوعات كلية الآداب والعلوم، بغداد- القاهرة ١٩٥٦م.

٦١- سبط الجوزي: يوسف بن قز (توفي ٦٥٤هـ)، تذكرة الخواص.

٦٢- السّرخسي: محمّد بن سهيل، المبسوط (٣٠) جزء القاهرة ١٣٢٤هـ

٦٣- سعاد ماهر: مجلة كلية الآداب (خزف الرّقة) ج٢ مجلد ١٦ديسمبر ١٩٥٤م.

٦٤- ابن سعد: محمّد (توفي ٢٣٠هـ)، الطّبقات الكبيرى (٨) أجزاء ط ليدن ١٣٢٢هـ- ١٣٢٨.

٦٥- السّكري: محمّد بن حبيب (توفي في أواخر القرن الثّالث الهجري)، المحبر- حيدر أباد ١٩٤٢م.

٦٦- ابن سلام: أبو عبيد القاسم (توفي ٢٢٣هـ)، الأموال (تحقيق محمّد حامد الفقي) سنة ١٣٥٣هـ

٦٧- الشّابشتي: أبو الحسن علي بن محمّد (توفي ٣٨٨هـ)، الدّيارات، مطبعة المعارف- بغداد ١٩٥١م.

٦٨- شوقي ضيف: التّطور والتّجديد في الشّعر الأموي- القاهرة ١٩٥٩م.

٦٩- الشّوكاني: محمّد بن علي بن محمّد (توفي ١٢٥٥هـ)، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (٨) أجزاء مصر ١٣٤٧هـ

٧٠- الشّهرستاني: محمّد بن أبي القاسم (توفي ٥٤٨) الملل والنّحل (هامش كتاب الفصل في الملل والأهواء والنّحل لابن حزم) الطّبعة الأولى مصر ١٣٤٧هـ

٧١- الصّابي: هلال بن المحسن بن إبراهيم (توفي ٤٤٨هـ)، تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء، بيروت ١٩٠٤م.

٧٢- صالح أحمد العلي: التّنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأوّل الهجري، بغداد ١٩٥٣م.

٧٣- صفي الدّين عبد المؤمن: مراصد الإطلاع في معرفة الأمكنة والبقاع (٨) أجزاء القاهرة ١٩٥٥م.

٧٤- الصّولي: أبو بكر محمّد بن يحيى (توفي ٣٣٦هـ)، أدب الكتاب (تحقيق محمّد بهجة الأثري) مصر ١٣٤١هـ

٧٥- الطّبري: أبو جعفر محمّد بن جرير (توفي ٣١٠هـ)، (أ) تاريخ الرّسل والملوك (١١) جزء ٤- ١١ المطبعة الحسينية القاهرة ٢١٠هـ- ٩٢٢م، ٢- ٣ مطبعة الاستقامة- القاهرة ١٩٣٩م.

٧٦- (ب) التّفسير (٣٠) جزءاً- القاهرة (١٣٢٣- ١٣٣٩)هـ

٧٧- طه حسين:
(أ) الفتنة الكبرى، جزءان- مصر ١٩٥٩م.

٧٨- (ب) حديث الأربعاء (٣) أجزاء- مصر ١٩٣٧م.

٧٩- طه الهاشمي: مجلة المجمع العلمي العراقي (خالد بن الوليد في العراق) ج١ مجلد٣ سنة ١٩٥٤م.

٨٠- ابن عبد البر: القرطبي (توفي ٣٢٨هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ط حيدر أباد ١٣١٩.

٨١- ابن عبد الحكم: أبو محمّد بن عبد العزيز (توفي ٢١٤هـ)، فتوح مصر وأخبارها ليدن ١٩٢٠م.

٨٢- ابن عبد ربه: أحمد بن محمّد (توفي ٣٢٨هـ)، العقد الفريد (٦) أجزاء ١٩٤٠، ١٩٥٦م.

٨٣- ابن العبري: تاريخ مختصر الدّول- بيروت ١٨٩٠.

٨٤- ابن عساكر: علي بن محمّد (توفي ٥٧١هـ)، تاريخ دمشق (٥) أجزاء ط الشّام ١٩٢٩م.

٨٥- العسقلاني: ابن حجر (توفي ٨٥٢هـ)، الإصابة في معرفة الصّحابة (٨) أجزاء القاهرة ١٩٠٧م.

٨٦- ابن العماد: أبو الفلاح بن عبد الحي (توفي ١٠٨٩م)، شذرات الذّهب (٨) مجلدات ١٣٥٠.

٨٧- العمري: ابن فضل الله (توفي ٧٤٩هـ)، مسالك الأبصار في الممالك والأمصار، مصر ١٣٤٢- ١٩٢٤.

٨٨- ابن الفقيه الهمداني: (توفي في القرن الخامس الهجري)، مختصر البلدان، ليدن ١٣٠٣م.

٨٩- فليب حتى: تاريخ العرب المطول (٤) أجزاء بيروت ١٩٥٣م.

٩٠- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم (توفي ٢٧٦هـ)،
(أ) عيون الأخبار. مصر دار الكتب ١٩٢٥، ١٩٣٠.

٩١- (ب) الأشربة- دمشق ١٩٤٧.

٩٢- (جـ) الإمامة والسّياسة- مصر- مطبعة مصطفى الحلبي

٩٣- قدامة بن جعفر: أبو الفرج (توفي- ٣٣٧هـ)، الخراج ط ليدن ١٨٨٩م.

٩٤- القلقشندي: أبو العباس أحمد (توفي ٨٢١هـ)،
صبح الأعشى في صناعة الأنشا (١٤) جزء القاهرة ١٣٣١هـ-١٩١٣م.
٩٥- الكندي: رسالة في عمل السّيوف، ط بغداد- ١٩٦٢.
٩٦- لسترلنج: بلدان الخلافة الشّرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد) بغداد ١٩٥٤م.
٩٧- ماسنيون: خطط الكوفة (ترجمة تقي المصعبي) صيدا ١٩٤٦م.
٩٨- مالك: أنس (توفي ١٧٩هـ)،
المدونة (٤) أجزاء- القاهرة ١٣٢٤.
٩٩- الماوردي: علي بن محمد (توفي ٤٥٠هـ)،
الأحكام السّلطانية، ليدن (١٨٥٣).
١٠٠- المبرد: محمد بن يزيد (توفي ٢٨٥هـ)،
الكامل (٣) أجزاء (تحقيق زكي مبارك) مصر ١٩٣٦م.
الجزء الثالث- تحقيق (أحمد شاكر) مصر ١٩٣٧م.
١٠١- مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٣٠.
١٠٢- محمد حميد الله الحيدر أبادي: مجموعة الوثائق السّياسية في العهد النّبوي والخلافة الرّاشدة القاهرة ١٩٤١م.
١٠٣- المسعودي: علي بن الحسين (توفي ٣٤٦هـ)،
(أ) مروج الذّهب (٤) أجزاء ١٣٥٧هـ- ١٩٣٨.
١٠٤- (ب) التنبيه والإشراف- القاهرة ١٩٣٨م.
١٠٥- المقدسي: محمد بن أحمد (توفي في القرن الخامس)،
أحسن التّقاسيم في معرفة الأقاليم- ليدن ١٨٧٧م.
١٠٦- المقريزي: أحمد بن علي (توفي ٨٤٥)،
شذور العقود (انظر انستاس الكرملي).
١٠٧- ناصر خسرو: سفر نامة (ترجمة يحيى الخشاب) القاهرة ١٣٦٤هـ- ١٩٤٥م.
١٠٨- ابن النّديم: محمد بن إسحق (توفي ٣٨٣هـ)،
الفهرست- مصر ١٣٤٨هـ
١٠٩- نصر بن مزاعم: (توفي ٢١٢هـ)،
موقعة صفين- جزءان القاهرة ١٣٦٥هـ
١١٠- النّقشبندي: الدّينار الإسلامي- جزءان ١٩٥٣م.
١١١- النّوبختي: أبو محمد الحسن بن موسى (توفي ٢٠٢هـ).
فرقة الشّيعة- المطبعة الحيدرية، النّجف- ١٣٥٥- ١٩٣٦م.
١١٢- النّويري: أحمد بن عبد الوهاب (توفي ٧٤٢)،
نهاية الأرب في فنون الأدب، مصر ١٩٢٥م.
١١٣- وكيع: محمد بن خلف بن حيان (توفي أوائل القرن الرّابع الهجري) أخبار القضاة (٣) أجزاء تعليق وتصحيح عبد العزيز المراغي مصر ١٢٦٩هـ- ١٩٥٠م.
١١٤- ولها وزن: الدّولة العربية وسقوطها (ترجمة يوسف العش. دمشق ١٣٧٦هـ- ١٩٥٦م).
١١٥- ياقوت الحموي: (توفي ٦٢٦هـ)،
معجم البلدان (١٠) مجلدات. مصر ١٩٠٦م.
١١٦- اليعقوبي: أحمد (توفي ٢٨٤)،
(أ) التّاريخ، ثلاثة أجزاء، النّجف ١٣٥٨هـ
١١٧- (ب) البلدان، ليدن ١٨٩١ (ملحق كتاب الأعلاق النّفيسة) لابن رسته.
١١٨- يوسف خليف: حياة الشّعر في الكوفة حتى نهاية القرن الثّاني الهجري (غير مطبوع).
١١٩- يوسف غنيمة:
(أ) الحيرة، بغداد ١٩٣٦م.
١٢٠- (ب) تجارة العراق قديماً وحديثاً- بغداد ١٩٢٢.
١٢١- أبو يوسف: يعقوب (توفي ١٨٢) الخراج، القاهرة ١٣٤٦هـ

المراجع الأجنبية

١-Bossonnade, Life and Work in Medieval Europe ,London ١٩٣٧
٢- Creswell, Early Muslim Architecture A.D. ٦٢٢-٧٥٠, Ox- ford
٣- Dozy, Dictionnaire des noms des vetements arabes, Ams-terdam ١٨٤٥.
٤- Fisher, A History of Europe.
٥- Nicholson, Literary History of the Arabs, London ١٩٢٣.
٦- Mendelson, Slavery in the Ancient Near East, ١٩٤٦.
٧- Pope, A Survey of Persian art, vol. III, oxford ١٩٣٩.
٨- Repertoir, shronologique dépigraphique arabe, vol. I, ١٩٣١, le Caire.